

السلطة الخامسة

(نبض الحياة في القرية العالمية)



جودت هوشيار



السلطة الخامسة

(نبض الحياة في القرية العالمية)





دار موكرياني للطباعة والنشر

● **السلطة الخامسة) نبض الحياة في القرية العالمية (**

● الكاتب: جودت هوشيار

● التصميم الداخلي: سهنكر دلاوير عبدالله

● الغلاف: ريمان عبدالجبار

● السعر: (٢٠٠٠) دينار

● الطبعة الأولى : ٢٠١٤

● عدد النسخ: (٥٠٠)

● المطبعة: موكرياني (ههولير)

● رقم الأيداع (٨٠٣) في المديرية العامة للمكتبات لعام (٢٠١٤)

تسلسل الكتاب (٨٩٥)

الموقع الإلكتروني: www.mukiryani.com

البريد الإلكتروني : info@mukiryani.com

محتوى الكتاب

- ٧ كلمة الى القاريء
- ١١ القسم الأول : نظرة جديدة الى العمل الصحفي
- ١٣ من هو الصحفي ؟
- ١٧ بين صحافتين جيدة وسيئة
- ٢٥ صحافة الأثارة بين اختراق التابوهات وتزييف الواقع
- ٢٩ الصحفي والسياسة
- ٣٥ العلاقة الملتبسة بين الأعلام والأرهاب
- ٤١ حرية الصحافة بين التشريع والتطبيق
- ٤٥ المعايير الأخلاقية للعمل الصحفي
- ٥٥ القسم الثاني : الصحافة الورقية في عالم متغير
- ٥٧ الطريق الى القاريء يبدأ من العنوان !
- ٦٣ كيف اصبحت الصورة القوة المحركة للصحافة ؟
- ٦٩ دروس وعبر من تجربة صحفية ناجحة
- ٧٣ هل تشكل الصحافة المدنية خطراً على الصحافة التقليدية؟
- ٧٧ هل انتهى زمن الصحافة الورقية؟
- ٨٥ القسم الثالث : صحافة العصر الرقمي

- ٨٧ نحو مفهوم جديد للرسالة الإعلامية.
- ٩٠ الأترينت والتلفزيون من المنافسة المحومة الى الإندماج والتكامل.
- ٩٥ مسرات العصر الرقمي.
- ٩٧ سوبرمان العصر الرقمي.
- ٩٩ قوة الضعفاء.
- ١٠٢ السلطة الخامسة.
- ١٠٧ الأمية الألكترونية.
- ١١٣ القسم الرابع : بعض التأثيرات السلبية لتكنولوجيا المعلومات.
- ١١٥ هل الكتابة اليدوية في طريقها الى الزوال؟
- ١١٧ كيف تؤثر تكنولوجيا المعلومات في قدرة الإنسان على التفكير ؟
- ١٢١ القسم الخامس : قضايا وآراء.
- ١٢٣ اغلق التلفزيون وابدأ الحياة
- ١٢٦ من المستفيد من أحتكار المعلومات؟
- ١٢٩ الإعلام مهنة وأخلاق يارسها الإعلامي.
- ١٣٨ الصحافة الكردية بين الأمس واليوم
- ١٤٤ حكاية الجريدة الأطول عمراً في الصحافة الكردية.

كلمة الى القاريء

طراً على مدى العقدين الماضيين تحول جذري على مبادئ عمل وسائل الأعلام الحديثة، وبدأ هذا التحول نتيجة للتطور المتسارع لتكنولوجيا الأتصالات والمعلومات، والتعميم الرقمي في مجالات الحياة اليومية وانتشار الأجهزة اللوحية والهواتف الذكية، التي اتاحت إمكانية استخدام مجموعة من الوسائل الجديدة بأشكال متنوعة وجذابة، وبأكثر من حاسة واحدة في وقت واحد، كالمشاهدة والقراءة والأستماع، بحرية - تكاد تكون كاملة - وتكلفة زهيدة وتزايد وتنوع مصادر الحصول على معلومات موثقة وحديثة بسهولة ويسر وسرعة فائقة .

شبكة الأنترنت من أهم الأنجازات التكنولوجية على مدى التآريخ البشري، ولكن لا تزال امكاناتها ومسار تطورها اللاحق غير مفهومة تماماً، ولا أحد يمكن ان يتنبأ على وجه الدقة بما تحمله من مفاجآت، حتى في المستقبل المنظور. فقد كانت في البداية مجرد أداة لنقل البيانات الرقمية من جهاز كمبيوتر بحجم غرفة كبيرة الى جهاز آخر بنفس الحجم تقريباً، ولكن تحوّل بسرعة الى وسيلة فعالة للتعبير الذاتي بأشكال متنوعة. وهي تبدو غير مادية ولكنها تتطور بأستمرار وتزداد تعقيدا من يوم الى آخر. وتحمل الفوائد والشورور معا، وبدأنا الآن ندرك مدى تأثيرها على عالمنا .

فى كل لحظة مئات الملايين من البشر يخلقون ويتبادلون ويحصلون على كميات هائلة من المعلومات فى فضاء حر لا تحده فى الواقع اى حدود جغرافية او سياسية ، لذا يتعذر اخضاع الشبكة للقوانين الوطنية لهذه الدولة أو تلك. ويفضل الامكانيات الجديدة للتعبير الحر عن الرأي والتدفق المعلوماتي الهائل نشأ المشهد الأفتراضي المعقد المعروف لنا.

تمنّ ايها القاريء كم موقعا الكترونيا زرت؟، وكم رسالة الكترونية أرسلت أو تلقيت؟، وكم من الاخبار والقصص والتقارير والمقالات قرأت؟، وكم من الحقائق الجديدة عرفت؟، وكم من علاقات جديدة أنشأت؟، وكم من الأحلام ولدت هنا وتحققت؟. كل ذلك بفضل هذه المنصة الشاملة .

قبل ظهور الإنترنت، كنا نعيش فى نوع من حقبة ظلامية: كان علينا أن ننتظر طويلا لسماع الأخبار من الراديو او التلفزيون أو نقرأ عنها فى الصحف فى اليوم التالي. ونظر للذهاب إلى متجر للتسجيلات الموسيقية لشراء ألبومات جديدة، تحتوي على الأغاني والموسيقى التي نحبها.

وإذا لم نجد تحت يدينا مصدرا يتضمن المعلومات التي نحتاجها —كنا نتوجه الى مكتبة عامة ونقضي وقتا طويلا من اجل العثور على ما نبحث عنه فى بطون الكتب والمخطوطات المغبرة.

اقتحمت شبكة الأنترنت حياتنا وغيرت كل شىء فيها، نحن نعرف اليوم كل ما يحدث فى العالم لحظة بلحظة، نعرف عن الزلازل قبل أن تصل اليها، نستطيع ان نغير بأنفسنا أي مقال فى الأنسكلوبيديا الحرة، يمكننا ان نطلع على الأخبار أولا بأول وعلى الآراء المختلفة والتعليق عليها. يمكننا نشر مقالاتنا بسرعة ليطلع عليها القراء فى شتى انحاء العالم ونتبادل المعلومات والرسائل والصور مع من نشاء. كل ذلك ببضع نقرات الماوس.

الإنترنت غيرت ثقافتنا، فنحن اليوم نحصل على الفور على اجابات لأي سؤال يحظر ببالنا. يمكننا ان نوجه الأسئلة حتى الى الرؤساء والزعماء وقد نتلقي منهم الأجابات احيانا. وفي الوقت ذاته ، فأن عدم وجود أي نوع من التوجيه المركزي على الشبكة، أتاح الفرص للعنصرين والمتطرفين و الأرهبيين نشر سموم الكراهية والعنف في العالم على نحو غير مسبوق. ومع توسع هذا الفضاء سوف تتغير تصوراتنا عن كل مجال من مجالات الحياة الأنسانية - من التفاصيل اليومية الى المفاهيم الأساسية المتعلقة بالشخصية، والعلاقات مع الآخرين، وحتى سلامتنا الشخصية . وتحت الضغط الشديد للتكنولوجيا الجديدة تنهار الحواجز التقليدية على طريق الاتصال بين البشر: المسافات، اللغات، محدودية فرص الحصول على المعلومات - ويبدأ صعود موجة جديدة من الابداع وتنمية الطاقات البشرية الكامنة. وقد ادى التوسع الهائل للإنترنت إلى واحدة من التحولات الاجتماعية والثقافية و السياسية الأكثر اثاره للدهشة في التاريخ. والآن، على عكس الأيام الخوالي، حدثت تغيرات عالمية حقا، لم يحدث من قبل قط ان ظهرت فرص او امكانات او خيارات لمثل هذا العدد الهائل من الناس من مختلف البلدان. رغم أن هذه الثورة التكنولوجية، ليست الأولى في تاريخ البشرية بطبيعة الحال، ولكن لأول مرة في التأريخ يمكن لأي شخص أينما كان ومتى شاء أن يخلق معلومات إلكترونية، او يمتلكها ويوزعها في الوقت الحقيقي، دون إشراك وسطاء. وادت الثورة الرقمية الى تغيير جذري في أنماط التفكير وعادات القراءة، وعزوف الناس عموما والشباب خصوصا عن قراءة الصحف الورقية، وشيوع ثقافة الحصول المجاني على المعلومات، وأخذت الأزمات المالية المتلاحقة في كل مكان تعصف بالصحف الورقية، رغم اهتمامها المتزايد بالأخراج الفني وتغيير أساليب المعالجة الصحفية والأهتمام بالصور الملونة الكبيرة والعناوين الجذابة.

وأضطرت تلك الصحف الى التوجه نحو اصدار نسخ الكترونية بتطبيقاتها التفاعلية المتعددة موازاة النسخ الورقية أو بدونها، لكسب أكبر عدد ممكن من القراء والوصول اليهم أينما كانوا في أرجاء العالم.

الجيل الجديد لا يكتفي بالقراءة والمشاهدة والأستماع دون حسيب أو رقيب، ولكنه يكتب أيضاً في مواقع التواصل الاجتماعي والمنتيات والمدونات عن كل ما يشغل باله ويصور الأحداث الساخنة وينشرها على الملأ فور وقوعها، وبهذا يعد مشاركا فعالا في الفضاء الإعلامي.

نحن نعيش في عصر ثورة معلوماتية دائمة والسؤال ليس عن التغيرات التكنولوجية الكثيرة المتلاحقة، بل عن التغير في الدور الاجتماعي لوسائل الإعلام في عصر الثورة الرقمية. حتى قبل بضعة عقود كانت هذه الوسائل تعكس ما يحدث في المجتمع، أما اليوم فأنها تعكس أيضاً، التغيرات الحاصلة في داخل تلك الوسائل نفسها. وسائل الإعلام اليوم لا تعكس ما يحدث في المجتمع حسب بل أنها باتت عاملا رئيسيا في التغيير السياسي والاجتماعي والثقافي .

وهذا الكتاب الذي بين يدي القاري يتناول تلك التغيرات، بالبحث والدراسة، ولكن أنتهجت في تصنيفه نهجاً مختلفاً عن المعتاد، فهذا الكتاب ليس (مونوغرافيا) حول موضوع ضيق يفصله الكاتب ويحشوه بالأستطرادات والأقتباسات والهوامش، وكل ذلك مبعث ملل وسأم للقاريء، انما بحوث مركزة تجمعها وحدة الموضوع وهي صحافة العصر الرقمي بالمعنى الشامل لمفهوم الصحافة، ولكن يمكن قراءة كل بحث على نحو مستقل عن الآخر كلما تيسر الوقت للقاريء.

واعتقد ان معظم مباحث الكتاب جديد تماماً وبعضه لم يتطرق اليه أحد - حسب علمي - ورغبت ان يتعرف القاريء عليه أولا بأول، فأن نجحت في اشارة اهتمام الباحثين بالتغيرات العاصفة في الفضاء الإعلامي العالمي، اكون قد حققت الهدف من اخراج هذا الكتاب. ويسعدني تلقي أي نقد يوجه اليه لأن في ذلك اغناء لمحتواه.

أربيل - ٢٥ تشرين أول / نوفمبر ٢٠١٤

جودت هوشيار

القسم الأول

نظرة جديدة الى العمل الصحفي

من هو الصحفي ؟

قد يبدو هذا التساؤل ساذجاً في نظر البعض ومستغرباً في نظر البعض الآخر. ولكن أرجو من القارئ ان لا يسارع الى اصدار حكمه و يسمح لي بأن أؤدي رأياً قد لا يوافقني عليه الصحفي الذي يعتقد، ان مهنة الصحافة هي سيدة المهن ولا تدانها أي مهنة أخرى. و دعنا نتساءل أولاً، ماهي الوظيفة الأساسية للصحفي⁽¹⁾؟ وهل هي أكثر أهمية من سائر الوظائف والمهن الأخرى؟

المهندس يصمم وينفذ أبنية جديدة لثتى الاغراض من أوسط بيت سكني الى اعلى برج أو ناطحة سحاب أو يصنع منتجات جديدة أو يبتكر آلات أو أجهزة تخدم الإنسان ، والطبيب يعالج المرضى، والمعلم يعلم ويربى الجيل الصاعد .. الخ. أذن ما هي وظيفة أو مهمة الصحفي بصرف النظر عن الوسيلة الإعلامية التي يعمل فيها؟

الوظائف والخدمات التي تنهض بها الصحافة و المهام التي يؤديها الصحفي -
المواكب للتطور الإعلامي المتسارع في العالم - تتوسع يوماً بعد آخر، الا أننا يمكننا القول ان الوظيفة الأساسية للصحفي والتي تغطي كل ما يتبادر الى الذهن من وظائف و مهام وخدمات، هي العمل كوسيط بين المجتمع وبين مصادر المعلومات عن هذا المجتمع وما يحدث فيه، أي أن مهمة الصحفي هي جمع ونشر المعلومات عن الأحداث الراهنة، والاتجاهات وقضايا الناس وعمل ريبورتاجات و تقارير لنشرها او إذاعتها في وسائل الإعلام المختلفة مثل الصحف والمجلات الورقية والألكترونية والتلفزيون والإذاعة. وبتعبير آخر ان يسرد للناس عن أنفسهم وكل ما له أهمية في حياتهم او ما يثير اهتمامهم. وقد يتساءل البعض لماذا على الصحفي ان يفعل ذلك؟ فنقول، لأن المعلومات الصادقة يساعد الناس في تشكيل آرائهم واختيار توجهاتهم في الحياة. وتجنب ارتكاب الأخطاء بقدر الامكان وتحقيق النجاح. ولكن، لماذا يعتبر الصحفي وسيطاً؟

صحيح ان الصحافة هي مهنة المتاعب أحيانا عندما يتعلق الأمر بتغطية الأحداث الساخنة ميدانيا أو العمل في مجال الصحافة الاستقصائية. ورغم ان بعض الصحفيين يميل الى المغالاة في تقييم دوره في المجتمع بالقول أنه حامل رسالة سامية أهم من أي رسالة أو مهنة أو وظيفة أخرى. ولكن في واقع الأمر فإن المهمة الأساسية للصحفي هو الحصول على المعلومات ومعالجتها وتقديمها أو عرضها للقراء أو المستمعين أو المشاهدين على شكل نتاج اعلامي وفق شروط وخصوصيات الوسيلة الإعلامية التي يعمل فيها.

ومن أجل استجلاء المهام التي يقوم بها الصحفي - حسب مجال عمله - لا بد من دراسة الوظائف الأساسية للصحافة أو وسائل الإعلام في المجتمع، مما يساعد على فهم اوضاع لدوافع اطلاع المتلقي على ما تقدمه الصحافة .
في عام ١٩٤٨ حدد هارولد لاسويل (Lasswell)^(٧) ثلاث وظائف اساسية تقوم بها وسائل الاعلام في المجتمع.

أولاً- ابقاء الجمهور على علم بالتطورات من خلال مراقبة البيئة المحيطة.
ثانياً - عرض الاجزاء المختلفة للبيئة المحيطة والذي يساعد المستهلكين على فهم بنيتها ككل ويتيح لهم ربط تلك الاجزاء وتكوين صورة اوضح لتلك البيئة .

ثالثا - نقل التراث الاجتماعي الى الاجيال الجديدة من المستهلكين، وهي وظيفة في غاية الأهمية، لأنها السد المنيع امام الغزو الثقافي أو فرض اسلوب حياتي خارجي على مجتمع معين يتناقض مع تراثه الاجتماعي وهويته الثقافية.
وقد أشار عدد من الباحثين الغربيين الى وظائف أخرى مثل التوجيه والتوعية والترويج للسلع والخدمات التجارية (الوظيفة الاعلانية). ولا نريد الأسترسل في عرض هذه الآراء، بل نفضل تلخيصها في الوظائف الرئيسية التالية:

١ - الوظيفة الإعلامية والأخبارية:

تزويد المتلقي بالأخبار والتقارير عن الأحداث المحلية والخارجية مع مراعاة معايير الموضوعية والأمانة. وهذه الوظيفة لم تعد حكراً على الصحافة التقليدية، بل ان الصحافة الرقمية الجديدة أسرع في تقديمها - مجاناً في معظم الأحيان - وبالصوت والصورة في آن واحد

٢ - الوظيفة التنويرية أو التوعية و التوجيه:

تقديم جوانب شتى من المعرفة والآراء و الاتجاهات الفكرية والسياسية و جهات النظر التي تساعد القارئ على تثقيف ذاته وزيادة معلوماته في شتى المجالات.

٣ - وظيفة التسلية والترفية ووظيفة:

وهي وظيفة مهمة تدل على ان العديد من افراد المجتمع يستخدم وسائل الاعلام للأستمتاع والترريح عن النفس و وسيلة لتحقيق التوازن النفسي والعقلي لهم. الترفية والتسلية هي الوظيفة الرئيسية، وربما الوحيدة لـ (الصحف الشعبية) وصحف (التابلويد)، ناهيك عن (الصحف الصفراء) ولكن هذا لا يعني ان هذه الوظيفة تقتصر على هذه الأشكال من الصحافة الخفيفة، التي لا تتطلب جهداً ذهنياً من المتلقي، بل ان الصحافة الجادة والرصينة تقدمها أيضاً ولكن بجرعات محددة لا تغطي على وظائفها الإعلامية والتنويرية.

٤ - الوظيفة الأعلانية :

وهي الوظيفة الرئيسية للصحافة التجارية (الأعلانية) أو لللقنوات التلفزيونية الترفيهية، التي تسعى لتحقيق اقصى ما يمكن من مردودات مالية. واحدى وظائف الصحف الرصينة

ففي ظروف اقتصاد السوق.

لا يمكن لأي صحيفة أن تعيش الا اذا كانت تلقى الرواج ولها موارد كافية من الأعلان الذي يساهم في تغطية تكاليف إصدارها، لتصل الي القارئ بسعر يقل

عن تكلفتها الفعلية. ولولا الإعلان لأختفى من الوجود معظم الصحف والقنوات التلفزيونية الخاصة غير المدعومة مالياً من الدولة أو أي جهة أخرى.
ولكن أداء أي وظيفة من هذه الوظائف أو العمل الصحفي يتطلب جمع المعلومات ومعالجتها بموضوعية وأمانة وشفافية ومن ثم تقديمها كنتاج صحفي في نمط معين من أنماط الصحافة.

العمل الصحفي الحقيقي يتطلب موهبة و أحيانا شجاعة عند التغطية الميدانية للأحداث في المناطق الساخنة او القيام بتحقيقات صحفية أستقصائية. ومع ذلك فأن مصطلح " الصحفي " مرن ورحب. فالمذيعه التي تقدم عرضا لحالة الطقس أو أسهم الشركات أو أخبار الرياضة من حقها ان تقول انها صحفية أيضاً، فالمهنة الصحفية واسعة متنوعة المجالات والتخصصات والأشكال.

ولكن ماذا عن مصطلح "السلطة الرابعة" التي تطلق على الصحافة؟

حقا ان من الصعوبة بمكان ان تتناغم السلطة مع دور الوسيط. وارى ان سلطة الصحفي ووسائل الاعلام عموماً هي التأثير في الرأي العام والأسهام في تشكيله و النفاذ الى قلوب وعقول الناس، و يا لها من مهمة نبيلة. ولكن لا ينبغي بأي حال من الأحوال للصحفي ان يفهم مصطلح "السلطة" بالمعنى الفعلي للكلمة. لأن الصحفي لا يمتلك سلطة أو أليات من أجل تحويل كلماته الى أمر واقع.

بين صحافتين جيده وسيئه

في سنة ١٨٥٢ كتب رئيس تحرير جريدة التايمز اللندنية يقول: "ان الواجب الأساسى للصحافة هو الحصول على أحدث وأدق المعلومات عن الأحداث ونشرها على الفور، بحيث تصبح ملكاً للأمة بأسرها". ورغم مرور (١٦٢) سنة على هذه المقولة فأنها ما زالت صحيحة وتشكل حداً فاصلاً بين الصحافة المهنية الناضجة وبين أنواع أخرى عديدة من الصحافة اللامهنية، وأصبحت أكثر أهمية في عصر عولمة الاتصالات، التى أتاحت نشر أحدث المعلومات لحظة بلحظة عبر وسائل تقنية متطورة.

فالحك الحقيقى لأية صحافة، هو مدى دقة ومصداقية المعلومات المنشورة، فالصحافة الجيدة، تتحرى الحقائق وتتأكد من مصادرها، وتثقف جمهور القراء بما تنشره من تحليلات وآراء وتحقيقات وأستقصاءات .

الصحافة المهنية وصحافة البروباغاندا :

الصحافة المهنية بمفهومها الحديث، هى تلك التى تلقى الأضواء على ما يحدث في المجتمع والعالم من احداث وتطورات أولاً بأول وبكل موضوعية وتراقب الأداء الحكومى وتكشف عن مكامن الخلل فيه، ليس من أجل النيل منه، بل في سبيل لفت أنظار الحكومة والرأي العام اليها وتنشر التحليلات المتعمقة والمفيدة لوجهات نظر متباينة وليس لوجهة نظر واحدة، صحافة شفافة تحترم جمهورها وتلتزم بالمعايير الأخلاقية والقانونية للعمل الصحفى وتراجع أعمالها وتصحح مسارها اذا دعت الحاجة الى ذلك.

الصحافة المهنية وليدة الديمقراطية، نشأت وتطورت مع نشؤ وتطور الديمقراطية الغربية وفصل واستقلال السلطات التنفيذية، والتشريعية، والقضائية عن بعضها

البعض. ومن دون وجود هذه السلطات الثلاث المستقلة لا يمكن تصور وجود صحافة مهنية حرة ومستقلة.

هذا الفصل بين السلطات أمر جوهري للغاية . ففي النظم الشمولية هناك سلطة واحدة فقط هي السلطة التنفيذية ، التي تهيمن على السلطتين التشريعية والقضائية ولا توجد صحافة حقيقية، وان وجدت فهي (بروباغاندا) أو دعاية سياسية لرأس النظام ولالحزب الحاكم.

هكذا كان الأمر في ألمانيا الهتلرية و روسيا الستالينية والعراق الصدامي وليبيا القذافي، وهذا هو حال الصحافة اليوم في معظم الجمهوريات السوفيتية السابقة وفي روسيا البوتينية نفسها.

الصحافة بالمفهوم العلمى لهذا المصطلح لا يمكنها ان تعيش الا في أجواء الحرية والشفافية والعلنية.

ففى ظل النظام السوفيتى كانت ثمة (صحف) تتباهى بأنها تطبع وتوزع ملايين النسخ يومياً ومنها صحيفة (البرافدا) أي (الحقيقة) التي كانت تعتبر نفسها الصحيفة الأكثر توزيعاً في العالم. وعندما كنت في موسكو خلال الستينات من القرن الماضي وفي زيارتي التالية لها، كنت أرى وأسمع غالباً كيف يتهم القراء الروس على صحيفة (البرافدا - الحقيقة) قائلين: ان لا حقيقة في صحيفة الحقيقة، ولم تكن الصحف السوفيتية الأخرى الا تنويحات على ما تنشره (البرافدا) ولا أحد من الصحفيين السوفييت - وبينهم عدد كبير من الصحفيين الشرفاء المخلصين لمهنتهم والذين بلغوا مرتبة رفيعة من الاحترافية - كان قادراً على قول الحقيقة كما هي، وان فعل ذلك، يفصل من وظيفته أو يلقي به في غياهب السجون. وفي أفضل الأحوال كان مصير ما يكتبه الى سلة المهملات.

ولم تكن صحافة صدام أفضل من (الصحافة) السوفيتية، ان لم تكن أسوأ بكثير . في الثمانينات من القرن الماضي، قال لى صديق بولونى مثقف كان مديراً لمكتب شركة (بول سيرفس) البولونية في العراق - وهي الشركة التي وضعت التصميم

الأساسى لمدينة بغداد - وكان يتابع بحكم وظيفته ما تنشره الصحافة العراقية، قال لى هذا الصديق : " أنا لا أفهم لماذا لا تصدر الحكومة صحيفة يومية واحدة فقط توفيراً للجهود والمال، لأن الصحف اليومية الخمس التى تصدر الآن ، متشابهة المحتوى تماما ولا تختلف الا من حيث الشكل والأخراج، وكلها تتحدث عن صدام و تزين صفحاتها الرئيسية بصورة".

وصفوة القول ان التعددية السياسية والفكرية وحرية الرأي والتعبير ضرورية للصحافة المهنية كالهواء للإنسان ولا قيمة لصحافة لا تستطيع قول الحقيقة.

صحافة (البروباغاندا) بكافة أشكالها وصورها، صحافة تعتاش على التضليل المتعمد للجمهور وحبب او تشويه الحقائق وتجميل النظام الشمولى الحاكم وتلميع صورة القائد الضرورة أو الأخ الأكبر - حسب اورويل - وتبرير افعاله مهما كانت شنيعة. هذا النوع من الصحافة ليست مقصورة على الصحافة الرسمية للأنظمة الشمولية، بل تشمل الصحافة الأهلية المنحازة وصحافة المعارضة المؤدلجة خاصة في بلدان الشرق الأوسط، عندما تنتهج خطا ايديولوجيا واحداً ومحدداً وتفسر كل شىء بمقتضاه ، ولا تنشر الا ما يؤيد وجهة نظرها ، متجاهلة الآراء الأخرى. وتنتقد السلطة باستمرار وتتحامل عليها ولا ترى الا جانباً واحداً من اعمالها، وهو الجانب السلبي. مثل هذه الصحافة تدعى الأستقلالية بذريعة أنها غير تابعة للدولة. ولكن استقلالية الصحافة لا تعنى فقط عدم تبعيتها للدولة او جهة ما، بل عدم اغيازها في سياستها التحريرية.

ونرى أحيانا ان الصحافة الحزبية الجادة، أكثر موضوعية من بعض الصحف التى تدعى الأستقلالية، لذا فأن تقسيم الصحافة الى صحافة حكومية أو حزبية وصحافة أهلية (مستقلة)، أمر غير صائب، لأن المحك الحقيقى للصحافة هى مدى الألتزام بالمعايير المهنية والأخلاقية للصحافة .

الصحافة الجادة والصحافة الشعبية :

يرى بعض خبراء ومنظري الصحافة أن ثمة نوعين من الصحافة هما :
الصحافة الجادة أو الرصينة والصحافة الشعبية أو صحافة التابلويد (Tabloid)
أو الصحافة الصفراء. وهذه الألوان الثلاثة الأخيرة، متقاربة ومتشابهة من حيث
المحتوى وإن اختلفت في أخراجها ودرجة (اصفراها) .

تتميز الصحافة الجادة بغلبة المعالجات الصحفية التحليلية (المقالات، تقارير
المراسلين، النقد الأدبي والفني، عرض الكتب، التعليقات. وهذا لا يعنى أنها لا تهتم
بآخر الأخبار، فتقارير المراسلين تكون في العادة من مواقع الأحداث مباشرة، إضافة الى
ما تبشه وكالات الأنباء العالمية، وهى تلتزم المعايير الأخلاقية للعمل الصحفى وتتوجه
أساساً الى أفراد النخبة الواعية في المجتمع - وهم في الأغلب الأعم من المثقفين
والساسة ورجال الأعمال والمديرين ... الخ - حيث تقدم لهم نظرة متعمقة للظواهر
والأحداث تستند الى معلومات موثوقة تساعد في تشكيل قناعاتهم وآرائهم
وتسمح لهم باتخاذ قرارات صائبة في مجالات عملهم وفي حياتهم اليومية وتساعد في
تكوين قناعاتهم خلال الانتخابات والأستفتاءات.

النخب المثقفة في الدول الأوروبية المتقدمة وخاصة في بريطانيا تحرص على اقتناء الصحف
الجادة وليس صحف التابلويد، حتى لا تصنف نفسها ضمن الباحثين عن ثقافة الإثارة.
وتعد صحيفة (الغارديان) البريطانية نموذجاً رفيعاً للصحافة الجادة الى جانب
صحف إنجليزية أخرى.

وفي فرنسا هناك صحيفة لوموند (Le Monde) الرصينة التى حازت ثقة الأوساط
الثقافية والأكاديمية بما تنشره من معلومات موثوقة وما تتميز به تحليلاتها من
موضوعية ومهنية رفيعة، الى درجة ان أساتذة وطلبة الجامعات الفرنسية يستخدمون
موادها المنشورة كمرجع دراسية، كما تتسم خصائصها الطباعية واخراجها الصحفى

بمستوى عال من الحرفية الفنية وهي تفضل غالباً التعليقات النصية على الصور المثيرة وتصدر بحجم (A2).

أما الصحافة الشعبية أو صحافة التابلويد أو الصحافة الصفراء، فأنها تهدف في المقام الأول الى تحقيق أقصى ما يمكن من أرباح بصرف النظر عن المعايير الأخلاقية الصحفية وتتميز بسياستها التحريرية الهابطة ولغتها الصحفية المبتذلة وهي تتميز بقطعها وشكلها المستطيل غالباً، وتصميم أخراجها وحروفها المطبعية الكبيرة، بحيث يعرفها القارئ من النظرة العجلى، صحافة تدغدغ مشاعر القراء وتكثر من نشر الصور الملونة الجذابة للمشاهير والعناوين الحادعة واستعمال المختصرات، وتميل إلى معالجة الموضوعات المثيرة. وهي موجهة أصلاً الى الجمهور العام الذي ينشد الترفيه وتجذبه فضائح المشاهير والجرائم الشاذة وغرائب الأخبار، و طرائف النوادر، وتوافه المعارف.

وقد تطور هذا النوع من الصحف بمرور الزمن واصبح أصغر حجماً من اجل اجتذاب مسافري السكك الحديد وقطارات الأنفاق والحافلات لأن الصحف التقليدية تأخذ حيزاً كبيراً بين يدي القارئ وربما يضايق بذلك الآخرين في المقاعد المجاورة أو يشير فضولهم لقراءة الصحيفة التي أقتناها الراكب لنفسه .

صحافة جيدة ... صحافة سيئة :

يرى الصحفى البريطانى البارز ديفيد راندال "David Randall" في كتابه القيم " الصحفى الشامل" إن هناك نوعين فقط من الصحافة: جيدة وسيئة. ويقول في هذا الصدد " ليست هناك صحافة غربية او شرقية، ولا صحافة أميركية أو روسية أو فرنسية أو بريطانية أو بولونية أو عربية.

كما لا توجد صحافة ليبرالية أو ماركسية او محافظة أو جمهورية أو ديمقراطية، ثمة فقط صحافة جيدة وأخرى سيئة، وكلتاهما عابرة للقارات ولا تعرف حدوداً جغرافية ويمكن أن تكون بأية لغة من لغات العالم .

ومقابل كل صحفى جيد، مخلص لمهنته وملتزم بالمعايير الأخلاقية للعمل الصحفى، ثمة صحفى ينتقى الأخبار والمعلومات ويعالجها بما يرضى رؤسائه لا الحقيقة، وكلاهما يتسم بطابع عالمى، أي انهما موجودان في كل أنحاء العالم. وبطبيعة الحال فإن لكل شعب ثقافته وتقاليدته ولكل لغة صوتها المميز. ولكن ما يوحد الصحفيين الجيدين في جميع أنحاء العالم أكثر عمقاً وأهمية مما يفرقهم.

أن ظروف عمل الصحفيين تتباين في البلدان المختلفة ومن بلد الى بلد، ففي الأنظمة الشمولية يعمل الصحفيون في ظل الرقابة الحكومية على وسائل الأعلام وبضمنها الصحافة الورقية ولا يحصلون على المعلومات الحقيقية الا بشق الأنفس، كما استخراج حبات الذهب من رمال النهر، في حين أصبحت الرقابة في الدول الديمقراطية من تراث الماضى، حيث التدفق الحر الهائل للمعلومات من دون قيود أو حدود.

البعض يكتب في صحيفة تصدر بأربع صفحات والبعض الآخر في صحيفة تصدر بمائة صفحة مع الملاحق، ينو القارئ يحملها ناهيك عن قراءتها. ولكن الصحفيين الجيدين، أينما كانوا يسعون دائماً الى ان تكون صحفهم، صحافة مهنية ذكية مبنية على الحقائق: صحافة صادقة المقصد وتخدم هدفاً واحداً: الحقيقة

دون تحريف أو تشويه أو مبالغة. صحافة تخاطب القراء أيا كانوا، ومهما كانت انتماءاتهم وتوجهاتهم .

هذا الهدف العام يجمع الصحفيين الجيدين ويوثق بينهم أواصر الزمالة الحققة أكثر من أى شىء آخر مثل محل الولادة أو الأقامة. ويستثنى من ذلك الذين يتعجلون الحكم بدلاً من اكتشاف الحقيقة، هؤلاء لا يبحثون الا عن مصالحهم بدلاً من مصالح القراء . اولئك الذين يفضلون التعليق والتأويل على المعلومة الدقيقة والتهمك والأثانية وخرق المعايير المقبولة على المثل والمبادئ، والمعالجة الصحفية الضحلة على العمل الشاق والمتعب في البحث عن الحقيقة.

ان الصحافة الجيدة ذكية وممتعة، وموثوقة في معلوماتها ولا تخدم سوى الحقيقة، وبغض النظر عن القراء، والثقافة، واللغة، والظروف. أما الصحافة السيئة فهي كل ما عداها من أنواع الصحافة، سواء أكانت صحافة (البروباغاندا) أو صحافة الترفيه والتسلية بشتى مسمياتها.

صحافه الأثارة بين اختراق التابوهات وتزييف الواقع

"الصحافة الصفراء" تعبير يتردد كثيراً على ألسنة الناس، قد يقصد البعض بذلك "صحافة الإثارة" سواء كانت الإثارة سياسية أو دينية أو اجتماعية أو جنسية، وقد يُقصد البعض الآخر "الصحافة الشعبية" أو صحف "التابلويد". وهي ثلاثة أشكال من الصحافة "الخفيفة" يصعب وضع حدود فاصلة بينها، لأنها تتشابه إلى حد كبير من حيث المضامين والأخراج الفني.

أيا كانت المصطلحات و المفاهيم فإن الجميع يكاد يتفق على أن " الصحافة الصفراء" تفتقر إلى الصدقية والموضوعية والمصادر الموثوقة ولا يكلف العاملون فيها أنفسهم عناء التحقق من المعلومات المنشورة ولكنها - رغم ذلك - تلقى هوى ورواجا لدى القراء.

يرى معظم الباحثين، ان "الصحافة الصفراء" ظهرت للمرة الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية على يد (Ervin Wardman)، حين أصدر صحيفة (New York Press) في أواخر عام (١٨٩٦م). ولكن "الصحافة الصفراء" لم تلد عن طريق المصادفة، بل ان جذورها تمتد إلى الفترة التي شهدت فيها أوروبا تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية كبرى عقب الثورة الفرنسية (١٧٨٩ - ١٧٩٩م)، ومنها ديمقراطية المجتمع والصحافة اثر أنتشار الصناعة ونشؤ مراكز التجمعات العمالية وتقدم تكنولوجيا الطباعة والأنتاج الصحفي وارتفاع مستويات الدخل وظهور الطبقة الوسطى والقضاء على نسبة كبيرة من الأمية. كل هذه العوامل مجتمعة ادت إلى ظهور قطاعات عريضة من أشباه المثقفين وأنصاف المتعلمين الذين لم تعد الصحافة التقليدية الرصينة قادرة على تلبية رغباتهم واذواقهم، مما مهد لظهور ما تسمى "الصحافة الشعبية". التي تعكس الحوادث من وجهة نظر القاريء من الطبقة

الوسطى. وتوقفت قراءة الصحف أن تكون حكرًا وأمتيازًا للنخب السياسية والاجتماعية والثقافية، ولكن القاري العام - وهو قاريء محدود الثقافة وضيق الأفق - لم يكن يتقبل المقالات الجادة للصحف الرصينة، التي كانت تبدي اهتماما مكثفا بوظائف الصحافة الأساسية في المقام الأول، في حين كان الجمهور يرغب في الترفيه والتسلية..

ومنذ ذلك الحين عرف تأريخ الثقافة عموماً وتاريخ الصحافة على وجه الخصوص، اتجاهين متفاعلين ومتداخلين في أحيان كثيرة وهما "الاتجاه المعرفي" و"الاتجاه الترفيهي" وتميل "الصحافة الصفراء" الى تغليب الاتجاه الترفيهي على حساب الوظيفة الاعلامية. لقد تطور هذا النمط الجديد من الصحافة في الفترة اللاحقة و اكتسب ملامحه وسماته المتميزة في التجربة الصحفية الأميركية منذ العام (١٨٥٠م) ، وأهم ما يمتاز به هذه التجربة توسع "وظائف الصحافة" وعدم اقتصرها على الوظيفة المعرفية والاعلامية، والأهتمام المتزايد بالوظائف الجمالية و الأبداعية و الترفيهية التي تسهم في تلبية رغبات القاريء وأمتاعه واسترخاءه وهروبه من مشاكله الشخصية وتأمين المشاركة الفردية في عملية الأتصال.

تسعى "الصحافة الصفراء" الى أستمالة وجذب اكبر عدد من القراء بنشر مواد صحفية خفيفة تتسم بعناصرالأثرة والتشويق والطفرة والغرابة والتركيز على المحرمات (التابوهات) والأخبار المجهلة والشائعات والفضائح والجرائم والقصص الخيرية الملفقة والعناوين الصارخة أو المضللة، وليس ثمة ما يثير اهتمام القاريء وتلهفه أكثر من الأشاعات والأقاويل والفضائح و تفاصيل حميمة من حياة المشاهير. وبطبيعة الحال ينبغي ان يكون في مثل هذه الصحف الكثير من الجنس والوقائع الساخنة والعنف. فعلى سبيل المثال يشعر القاريء بالفرح حين يكتشف ان هذه الجريمة أو تلك المأساة لم تحدث معه شخصيا.

وتتميز هذه الصحافة باستخدام اساليب جذابة في التحرير و الأخراج الفني بما يتلائم واذواق واهتمامات الجمهور العام. وهي صحافة رخيصة الثمن، تبذل كل

امكانياتها من اجل أستمالة الجمهور وزيادة التوزيع الذي يكون دافعا للحصول على عوائد اعلانية ضخمة ودون النظر لعائد بيع نسخ الصحيفة ذاتها. ويمكن القول ان "الصحافة الصفراء" أسهمت في تحول "الصحافة" الى "صناعة".

والحق ان غالبية الناس لا تهتم كثيراً بالسياسة العالمية ولا بالوضع الاقتصادي الداخلي وتركز في الأساس على المواضيع الشخصية المثيرة. وقد استفاد رجال الأعمال من هذا التغيير لجني الأرباح، كما أستفاد منه رجال السياسة الذين دروا الأموال على أصحاب القلم لكتابة مقالات تزور الحقائق وتقلب المعلومات رأس على عقب بهدف النيل من هذه الشخصية السياسية أو تلك.

في يومنا هذا لا توجد حدود فاصلة وواضحة بين "الصحافة الصفراء" و"الصحافة الرصينة"، حيث تظهر بعض ملامح الصحف الصفراء الى هذا الحد او ذاك في "الصحف الرصينة" التي تخاطب المثقفين. وقد تشير "الصحف الرخيصة" احيانا مشاكل اجتماعية خطيرة.

صحف الأثارة فى العراق وأقليم كردستان:

"الصحافة الصفراء" في الغرب صناعة متطورة تدر مليارات الدولارات سنوياً وتتمتع بجرية واسعة في ظل الأنظمة الليبرالية ويوسعها تناول شتى الموضوعات المثيرة وفي مقدمتها العلاقات الحميمة للمشاهير ونجوم المجتمع وتصيّد أخبارهم وأسرارهم عن طريق التلصص على حياتهم الخاصة ونشر كل ما يلهب خيال القاريء، محدود الثقافة. ومن خلال متابعتنا للصحافة العراقية والكوردية نرى عدم وجود "صحافة صفراء" بالمعنى الدقيق للمصطلح في العراق و إقليم كردستان في الوقت الراهن، وانما هناك بعض العناصر والملاحم الصفراء، التي لم تأخذ مداها الكامل نظراً للبيئة الشرقية المحافظة، التي تحول دون اختراق التابوهات أو تجاوز العادات والتقاليد والأعراف الراسخة للمجتمع.

ولعل من أبرز هذه الملامح الصفراء - التي تقتصر على عدد من الصحف الأهلية أو الخاصة - شيوع ظاهرة الخبر المجهل أو الخبر غير محدد المصدر وأحياناً الخبر غير الصحيح أو الكاذب. ومن تلك الملامح أيضاً اللجوء الى التهويل والمبالغة في المعالجة الصحفية. وكذلك استخدام العناوين المضللة للأخبار والتقارير وتضمينها معلومات أكبر مما تمتلكه الصحيفة، أي ان العناوين الصارخة - التي تحتل مساحات كبيرة في مقدمة الصفحة الأولى وحتى في الصفحات الداخلية - قد لا تكون لها الا علاقة طفيفة أو واهية بمضامين المواد المنشورة.

وعلى اية حال فأن هذه العناصر واللامح التي أخذت تطغي تدريجياً على الصحافة الخاصة العراقية والكوردية من اجل زيادة أرقام توزيعها ومردوداتها المالية دليل واضح على تدني الاحترافية المهنية لها قبل أن تكون تقليداً غير ناضج للصحافة الصفراء في الغرب .

الصحفي والسياسه

يمكن القول أنّ ثمة اليوم ثلاث مدارس في الصحافة العالمية حول علاقة الصحفي بالسياسة :

الأولى: " المدرسة الأميركية " التي ترى عدم جواز الأنحياز السياسي للصحفي الى درجة أن العديد من المؤسسات الاعلامية الأميركية تمنع الصحفيين العاملين فيها من الكشف عن ميولهم السياسية خارج اطار العمل بهدف الحفاظ على موضوعية واستقلالية المؤسسة وبحسب مجلة " النيويورك " الأميركية، فان العديد من الصحف في الولايات المتحدة لا تسمح للصحفيين بالتعبير عن آرائهم العامة أو المشاركة في تظاهرات أو تعليق رموز انتخابية أو ملصقات على خلفية سياراتهم، وترى ان على الصحفي التزام جانب الحياد عندما يغطي مظاهرة او مؤتمرا حزبيا او اي نشاط سياسي آخر و ان يكون متوازناً وينشر الآراء المختلفة لأنه لو انحاز الى جهة ما فإنه يفقد مصداقيته وقرائه من ذوى الأتتماءات السياسية الأخرى.

ولقد بالغ رئيس تحرير صحيفة (الواشنطن بوسط - Washington Post) في هذا الأمر كثيراً الى درجة أنه رفض الأدلاء بصوته في الأنتخابات الرئاسية لكي لا ينتهك مبدأ عدم الأتتماء السياسي للصحفي، مؤكداً ان الدور الاعلامي الذي يلعبه الصحفي يحول بينه وبين الأنحياز السياسي ليوفر لنفسه ولقرائه فرصة أوسع من التحليل الموضوعي لشتى الأحداث والمواقف من غير تدخل الميول والمزاج السياسي.

وترى هذه المدرسة، ان العمل الاعلامي هو أحد ميادين التحليل والحكم الدقيق وهو عالمي ووطني اكثر مما هو فئوي أو أيديولوجي، فهو كالقضاء المستقل بطبيعته الداخلية يرفض ان يتماهى مع الأتتماء السياسي الحدود.

الثانية : "المدرسة الأوروبية" التي لا تمنع أن يكون للصحفي انتماء سياسى خارج اطار العمل، على ان يلتزم بالمعايير المهنية للصحافة المستقلة، لأن الكثيرين من أفراد المجتمع - اى مجتمع - لديهم ميول سياسية، ولا ضير ان يكون للصحفي أيضاً رأى سياسى أو حتى انتماء سياسى ولكن العيب والخطا هو أن يتم تغطية الاخبار والاحداث ليس كما تقع على ارض الواقع، وانما كما يهوى الصحفي وما يحقق من خلال تغطيته للجهة التي ينتمى اليها او للوسيلة الاعلامية التي يعمل فيها، فالمطلوب اذن وعى الصحفي لأدوات ومعايير العمل الصحفي وأدراكه لدور الصحافة والتزامه بالمصادقية والحيادية أى ان يكون الانتماء السياسى خارج العمل الاعلامى المهني.

الثالثة : هي "مدرسة عالمية" تقسم الصحافة الى نوعين:

الأول: صحافة بلا موقف سياسى: وهي الصحافة، التي لا تعبر عن اتجاه سياسى معين، أو تتبنى أيديولوجية بعينها، وأما تفتح صفحاتها لكل الآراء والأوجهات السياسية، والاجتماعية ولكل أصحاب الرأي على أختلاف رؤاهم. وتركز على الموضوعات التي تهتم القارئ العادى وتخطب عواطفه بالدرجة الأولى، كالجرائم والجنس والرياضة وأخبار المجتمع وفئات المشاهير والأحداث الطريفة والغريبة والمسلية.

الثانى: صحافة ذات موقف سياسى: لكل صحيفة بصرف النظر عن حجم انتشارها سياسة ما، ويلعب تمويل الصحيفة دورا في تحديد سياستها التحريرية ومواقفها من قضايا المجتمع، وتنتمى غالبية الصحف الصادرة في أوروبا الشرقية والبلدان النامية الى هذا النوع من الصحافة تحديدا، على خلاف الصحف الغربية ذات الاتجاه السياسى، التي تتسم بالمهنية ولا تخلط بين الصحافة والسياسة، بل تلتزم بأخلاقيات العمل الصحفي، وفي مقدمتها صحافة النخب المؤثرة في المجتمع، التي تتسم بموضوعاتها بالدقة والموضوعية وتتصف معالجتها للأحداث بالألتزان وتميل الى التحليل المععمق للأحداث السياسية المحلية والدولية وتتجنب نشر

الفضائح، الا اذا كانت لها أهمية سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، ولعل خير مثال على هذا النوع من الصحف، صحيفة " الغارديان " البريطانية، التي يرى خبراء الصحافة، أنها الجريدة الليبرالية الأولى في العالم، الا أنها أنتقدت بشدة الإدارة الأميركية الليبرالية عند نشرها وثائق "سنودين" وجسدت بذلك القيمة الأكثر أهمية في العمل الصحفي وهي الأمانة المهنية .. وأنها على استعداد لإلحاق الضرر بالتيار الذي تمثله باسم الحقيقة. وهي تدافع ليس عن المصالح السياسية لخلقائها، بل عن المساءلة والشفافية في الحكومة، وتوازن السلطة و حق الشعب في أن يعرف مع الحرص على عدم أنتهاك الخصوصية الشخصية.

الحياد الإعلامي:

صفة الحياد مبدأ أساسى من مبادئ الصحافة المستقلة، تماما كالجهاز القضائى، فالقاضى المنحاز لأحد طرفي القضية تنتفى صفة الحياد منه و يعتبر غير جدير بممارسة مهنة القضاء، لأن هدف القاضى هو التحرى عن الحقيقة واقامة العدل وانصاف المظلوم. الأخلاقيات المهنية تتطلب تطبيق القيم الإعلامية الرئيسة بمصادقية ودقة لضمان تغطيات محايدة تعكس تنوع الآراء ووجهات النظر المتعددة وعلى نحو متوازن والتحقق من عدم وجود جهة لم يتم عكس آرائها بشكل منصف. وتجنب ما يسىء الى قسم من الجمهور المتلقى، والتعامل بأمانة مع مصادر المعلومات واتاحة الفرصة للرد من قبل من يسهم الموضوع.

وإذا اراد الصحفي أبداء وجهة نظره الخاصة حول مسألة سياسية فأن المجال مفتوح أمامه من خلال مواد الرأى الحرة أو الموجهة التى قد تكون على شكل مقالات أو أعمدة صحفية تتيح لكاتبها حرية أضفاء موافقه الأيديولوجية وانطباعاته الشخصية على الحدث.

ولكن الممارسات الصحفية في شتى أنحاء العالم تثبت بأن لا يدع مجالاً للشك ان هذا المبدأ يكاد أن يكون غير قابل للتطبيق من الناحية العملية ، حتى ان بعض

منظري الأعلام ينفي وجود الحياد الإعلامي أصلاً . وكما أشرنا آنفاً، فإن لكل وسيلة إعلامية سواء كانت حكومية أو حزبية أو خاصة سياستها التحريرية التي تعبر عن مصلحة مالكيها أو الجهة الممولة لها. والحياد لا يمكن توافره في ظل وجود مصلحة مادية أو سياسية .

وبقدر تعلق الأمر بالصحفي نفسه، الذي يغطي الأحداث السياسية ، ليس من السهل عليه أن يكون محايداً دائماً. افهو ليس مجرداً من الحس الأتماعى والرؤية السياسية، وليس بانسان ألى يقوم بنقل الأخبار فقط، بل هو شخص يعايش الحدث أكثر من الآخرين.

وفي الوقت نفسه فإن الحياد الإعلامي المنشود وثيق الصلة بمدى الحرية التي يتمتع بها الصحفي في تغطيته للأحداث أو تناول أى موضوع يراه مهما، فهو لا يمكن ان يكون حياديا عند تغطيته للأحداث السياسية، مع وجود خطوط حمراء لا يمكنه الأقتراب منها أو مصلحة تفرض عليه حجب بعض الحقائق.

هل عفا الزمن على قاعدة (الخير مقدس والرأى حر)؟

فى نظرية الأعلام قاعدة تقول أن (الخير مقدس والرأى حر) ويتبغى الفصل التام بينهما، فالخير يكتسب صفة القدسية، من واقعته، وحقيقة حدوثه، ولا بد من التحرى الدقيق قبل نشره، لأن دور الصحفي هو تغطية الخبر بصدق وأمانة و ايصاله للمتلقى دون تشويه او تحريف او محاولة تطويعه لسياسة الوسيلة الأعلامية التي يعمل فيها، فطالما هناك حدث، مهما كانت درجة خطورته أو تأثير تداعياته، يجب ان يعرفه المواطن، فهذا حق من حقوقه (المواطن) وواجب الصحافة في أن واحد.

ولكن البعض يجادل بأن هذه القاعدة قد عفا عليها الزمن وأصبحت بالية فى عصرنا الراهن ولا يتقيد به معظم الأعلاميين حالياً، بل على النقيض من ذلك، كل الأخبار تحمل اليوم رأياً، وان الحدث الواحد يعرض فى وسائل الأعلام بصيغ مختلفة، وكل صيغة تستبطن رأياً أو توجهها تسوس الخبر حسب رؤية الوسيلة الأعلامية للحدث.

والحق ان الخبر الذي لا يحمل رأياً لا يجذب الأنتباه، لأن الجمهور غير متجانس في ميوله السياسية، وتوجهاته الفكرية، وخلفياته الثقافية وغير محاييد كما وسائل الأعلام، فهو يبحث عن الوسيلة الأعلامية التي تدعم ميوله السياسية، وتتفق مع توجهاته الأيديولوجية. وأى وسيلة اعلام تعمل بمبدأ الحياد ستلقى الأعراض من الجمهور وتكون بضاعتها كاسدة.

إن تجريد الخبر عن قدسيته لصالح الرأي يتجلى بأوضح صورها في البرامج النقاشية للقنوات الفضائية، عبر استضافة المحللين السياسيين الذين تنسجم توجهاتهم السياسية والفكرية مع سياسة تلك القنوات، حيث نرى كل واحد منهم يتناول الخبر الواحد من زاوية معينة، وقد يصل الأمر بهم الى التقليل من اهمية الخبر مدار الجدل أو حتى التشكيك في صحته. ونرى على هذا النحو ان الرأي يطغى على الخبر، وتضيع الحقيقة في خضم التحليل. والفضائيات تمنح للرأى مساحة و وقتاً أكبر بكثير من مساحة ووقت عرض الخبر، وبذلك تعبر عن وجهة نظرها في الحدث على نحو غير مباشر.

العلاقة المتبسة بين الإعلام والأرهاب

تستغل التنظيمات الإرهابية وسائل الإعلام الألكترونية وعلى رأسها شبكات التواصل الاجتماعي التفاعلية التي نعرفها (فيسبوك، تويتر، يوتيوب) كمنصات لبث أفكارها وأخبارها وتنفيذ أجندتها، بسبب الانتشار الواسع لمواقع التواصل وسهولة استخدامها وامكانية تخطي الحواجز السياسية والجغرافية في عملية الأتصال المجاني الفوري بين اعضاء التنظيمات الإرهابية والتنسيق فيما بينهم والكم الهائل من المعلومات التي يمكن تبادلها، هذه التنظيمات تدرك جيداً أن استراتيجيتها الإعلامية الحرفية المتميزة تساعدها في تحقيق أهدافها الجهنمية.

الأرهاب يتسلح بالأعلام الجديد عموماً والأجتماعي منه خصوصاً من اجل تحقيق عدة أهداف في آن واحد وهي:

١- الوصول إلى الرأي العام والترويج لأيديولوجيته والدعاية لفكره الظلامي المتطرف.

٢- استعراض قوته واضفاء هالة مزيفة على فعالياته الأجرامية وتضخيم قدراته وإظهارها بشكل أكبر من حجمها الحقيقي، ونشر أجواء الخوف والرعب بين الجماهير المستهدفة.

٣- بث اليأس والأحباط بين عناصر قوى الأمن، وكشف ضعف او عجز الحكومة المستهدفة عن حماية مؤسساتها ومواطنيها وعن ضمان الأمن والأستقرار.

٤- حشد المناصرين وتجنيد الشباب من مختلف أنحاء العالم لديمومة بقاءها.

٥- نشر ارشادات تشرح وسائل الاتصالات السرية وطرق صنع المتفجرات وتفخيخ السيارات وزرع الألغام والأسلحة الكيميائية.

٦ - جمع التبرعات عن طريق الأنترنت من المستخدمين ذوي الميول المتطرفة او من الآخرين بأساليب الخداع والأحتيال.

وتختلف الجماعات الإرهابية في اعطاء الأولوية لهذا الهدف أو ذاك، فعلى سبيل المثال نرى ان تنظيم داعش يركز على استعراض قوته وصدمة الناس وترويعهم بوحشيته وأساليبه الدموية والنيل من معنويات القوات الأمنية العراقية واستدراج الشباب المسلم أينما كان وغسل عقولهم وحشوها بالغيبيات والخرافات والأباطيل من قبيل ترغيب وتحييب الموت اليهم كطريق لدخول الجنة حيث سيغنم كل واحد منهم باربعين حورية وعد بهن.

دور الإعلام العربي في الترويج لداعش وبث الرعب في النفوس:

يسهم قطاع عريض من الإعلام العربي، في بث سموم داعش، عندما يقوم بنقل أخبار التنظيم على نحو غير موضوعي وبث ما تنتجه ماكينة البروباغندا الداعشية من مواد دعائية منحازة مثل الصور ومقاطع الفيديو عن قطع الرؤوس وقتل المدنيين العزل وتدمير المعابد والأضرحة. ونحن لا نقصد هنا الإعلام الناطق بأسم الجهات المساندة لداعش فقط، التي تشن حرباً اعلامية هدفها اشاعة اليأس والأحباط في النفوس، بل أيضاً اعلام الأثرية التجاري، الذي يهدف الى الحصول على المال ولا يهتم كثيراً بالتأثير النفسي السيء لما ينشره من اشاعات، أو ما يروج له من محتوى اعلامي عنيف والذي يوحى للمشاهدين والقراء ان داعش غول قوي وغني وخطير يصعب او يستحيل القضاء عليه، في حين رأينا كيف ان حماة بلدة صغيرة مثل كوياني البطلة تصدوا لداعش ودباباته وصواريخه ومدافعه وسلاحه الكيميائي بأسلحة بسيطة وعزم لا يلين وألقوا بعناصره وآلياته خسائر فادحة، ذلك لأن المعنويات العالية للمقاتلين لا تقل أهمية عن الأسلحة المستخدمة في أرض المعركة. اذن فأن داعش ليس ذلك التنظيم الخرافي الذي لا يقهر، بل تنظيم ارهابي يمكن دحره عسكريا في ميادين القتال واعلاميا على نفس الشبكات التي يبت عليها داعش دعايته المسمومة ودحض أفكاره الظلامية ومنهجه التدميري بفضح دوافعه و اساليبه المجردة من كل القيم الانسانية والأخلاقية وخنقه اعلاميا بعدم التركيز على ما يقوم به من جرائم بشعة تقشعر لها الأبدان.

لا معنى للأرهاب من دون وسائل الإعلام:

إن تأريخ الإرهاب الدولي حافل بأمثلة كثيرة تدل على أن الهدف الأول للإرهابيين هو الوصول إلى وسائل الإعلام والتأثير النفسي في الجمهور العريض والإعلان عن أنفسهم وايصال أصواتهم السياسية أو الدينية أو القومية الى الرأي العام في بلدانهم ونقل مطالبهم وتهديداتهم إلى الجهات المعنية في استعراض رخيص لسلحهم الوحيد وهو الخطف والقتل والذبح دون اى اعتبار للقيم الدينية إلى يزعم الإرهابيون أنهم (يجاهدون في سبيلها). وقد لوحظ إن التخطيط لعملية الحادي عشر من أيلول في الولايات المتحدة الأميركية، قد جرى بشكل يتيح الفرصة لعشرات مصوري التلفزيون و وسائل الإعلام الأخرى لتسجيل كيفية اختراق الطائرة الثانية لناطحة السحاب الثانية، كما إن العديد من الإرهابيين الذين قاموا باحتلال السفارات أو مقرات المنظمات الدولية أوخطف الطائرات واحتجاز المدنيين، قد اعترفوا بأن هدفهم الأول كان الظهور على شاشات التلفزيون من اجل نشر بياناتهم ومطالبهم وقد استسلموا بعد عقد مؤتمر صحفي سريع أو الإدلاء ببيان إلى وسائل الإعلام.البحوث والدراسات العلمية التي اجريت في معاهد متخصصة في الغرب تؤكد ان "لا معنى للإرهاب من دون وسائل الإعلام"، ذلك لأن عرض ما تنتجه ماكنة الدعاية الأرهابية وخصوصاً ما ينشره داعش على نحو متعمد من بيانات ومقاطع فيديو بشعة تركز على الأجساد الممزقة والأشلاء المتناثرة والأليات المحترقة، يعد اسهاماً مجانياً مباشراً في الحرب النفسية التي يشنها هذا التنظيم الأرهابي وتشجيعاً على ارتكاب المزيد من الجرائم بهدف التأثير في الرأي العام وارباك بعض مفاصل الحياة في البلد المستهدف. (داعش) لا يفتقر الى منصات اعلامية تقليدية مثل الصحف الورقية ولا الى فضائيات التي تروج للفكر العنيف، وثمة العديد من الصحف والفضائيات العربية القومية والأسلاموية، التي تسهم بشكل مباشر أو مستتر في الدعاية لداعش عن طريق التركيز على فعالياته وابرار وتهويل انتصاراته الحقيقية والموهومة، ولكن تأثير

الصحف الورقية، لم يعد كما كان في الماضي بل أخذ في التضاءل يوماً مع الانخفاض المستمر لعدد قراءها، والفضائيات ليست منصات ملائمة لتجنيد الجهاديين أو التواصل بين أعضاء التنظيم، لذا فإن استراتيجية داعش الإعلامية قائمة على استغلال الأنترنت و شبكات التواصل الاجتماعي والهواتف الذكية للوصول إلى الناس والتنسيق بين الأرهبيين، على شتى المستويات. الأبواق الإعلامية لبعض الدول الأجنبية، التي عارضت التدخل الأميركي في العراق عام ٢٠٠٣ وتضررت مصالحها بعد سقوط النظام الدكتاتوري، تسهم أيضاً على نحو فعال في تهويل ما يجري في العراق اليوم وتحدث عن الغزو الداعشي ليس لأظهار وحشيته بل تشويه صورة الإسلام، وبذلك تسهم هذه الأبواق في تضليل الرأي العام المحلي والعالمي وهى مهمة بمصالح الدول الناطقة بأسمها، أكثر من اهتمامها بأمن واستقرار العراق و حياة ومصير شعبه. ولا شك إن حجب حسابات الأرهبيين أو ازالة المحتوى الإلكتروني، الذي يبثونه في الفضاء الإعلامي الإلكتروني، ستعرقل الى حد كبير تنفيذ أجنديتهم وسيؤدى إلى حصر الآثار النفسية للعمليات الإرهابية في نطاق ضيق وتفويت الفرصة عليهم لتحقيق مخططاتهم الشريرة. وتشير بعض البحوث الإعلامية الجديدة التي اجريت في الغرب ، إن الحرب النفسية التي تشنها الزمر الإرهابية، تفقد تأثيرها، عندما لا تهتم بها وسائل الإعلام. وفى الوقت نفسه فإن التركيز المتعمد والعرض المتكرر للمشاهد الدموية لعمليات القتل والذبح والتي تثير الرعب والأسى لأول وهلة، يعتاد عليها المشاهد تدريجياً ويفقد اهتمامه بالأم الآخرين وتعاطفه الأنسانى مع الضحايا إلى حد بعيد ويركز على أمنه الشخصي وأمن عائلته و يظل نهبا للقلق والهواجس لأنه يخشى إن يتعرض لحادث ارهابى في اى مكان من المدينة التي يسكن فيها، وهذا ما يهدف إليه الأرهبييون، اى نسيان آلام الضحايا وعذاباتهم والاستهانة بالأرواح البشرية .

يتضح مما تقدم، إن العنصرالضرورى لأية سياسة فعالة ضدالأرهاب والحد من مخاطره يكمن في منع استغلال وسائل الإعلام من قبل زمر الإرهاب والتزام هذه الوسائل بالموضوعية والحيدة و المعايير المهنية في تغطيتها للعمليات الإرهابية.

الأرهاب وحرية الإعلام:

ربما يقول البعض إن منع داعش من استغلال وسائل الإعلام وتجاهل بياناته وما يبثه من مقاطع فيديو يتعارض وحرية الإعلام وان من حق المواطن الحصول على المعلومات الوافية عن الحوادث التي تقع في البلاد ولها مساس بحياته ومستقبله ولكن من جهة أخرى من حق المجتمع أيضا إن يحمي نفسه من الآثار السلبية الخطيرة للحرب النفسية التي تستهدف أمنه واستقراره ومستقبله .

و من المفيد إن نستذكر هنا الوعد الذي قطعه الرئيس الأميركي (فرانكلين روزفلت) لشعبه عند توليه السلطة، بضمان الحريات الأساسية ومنها التحرر من (الخوف). ولكن عرض المشاهد المروعة للعمليات الإرهابية يتعارض تماما مع التحرر من الخوف، ولحل هذا التناقض، لا بد من التوصل إلى توازن بين وقاية المجتمع من الخوف وبين حرية الإعلام، ذلك لأن أية سياسة فعالة لمكافحة الإرهاب والحد من مخاطره وتأثيراته النفسية البالغة تستدعي إن يكون الإعلام عوناً للمجتمع، لا سلاحاً يستخدمه الإرهابيون ضده.

يزعم بعض الإعلاميين إن المتلقي نفسه يرغب في مشاهدة صور العنف، ولكن هذا الزعم غير صحيح، لأن دراسات كثيرة أخرى أشارت إلى إن وسائل الإعلام هي التي تخلق مثل هذه الرغبات لدى الجمهور المشاهد وان الاستمرار في خلق رغبات سلبية- إن صح التعبير- يلحق الأذى بالمجتمع وان من حق المجتمع أيضا الرفض القاطع لتحويل الرعب إلى سلعة تتاجر بها وسائل الإعلام وتجنّب من ورائها إرباحا طائلة ويكفي إن نشير إلى إن شريطا يتضمن بيانا للبيغدادي أو الزرقاوي أو مشاهد للمقاتلين المثلثين وهم ينحرون أو يقتلون ضحاياهم ، لا يستغرق عرضه سوى بضع دقائق (والتي تحصل عليها بعض القنوات التلفزيونية بطرق مشبوهة وتحتكر ملكيتها) يباع للفضائيات الأخرى ووكالات الأنباء العالمية بسعر يتراوح بين (١٥٠- ٢٥٠) ألف دولار، أي إن المنفعة المادية متبادلة بين الإرهابيين والقنوات التلفزيونية،

التي لا تبالي بالنتائج المترتبة على عرض مثل هذه الأشرطة. وبطبيعة الحال، فأنا لا ندعو إلى الحد من حرية الأعلام، ولكننا نرى ضرورة الالتزام بالمسؤولية الاجتماعية وتجنب كل ما يلحق الضرر بالمجتمع والأمن الوطني.

أخلاقيات المهنة في التعامل مع أخبار الأرباب:

نعقد إن الالتزام بأخلاقيات المهنة والشرف الصحفي وتغطية الحوادث بأسلوب حضاري، بعيدا عن الإثارة الصحفية والاستغلال التجاري للمآسي البشرية لا تتعارض أبدا مع حرية الأعلام وحق المواطن في معرفة الحقائق التي لها مساس بحياته ومستقبله. وثمة درس بليغ قدمته الفضائيات الأمريكية الأكثر شهرة وانتشارا، عندما قررت بعد أيام معدودة من حوادث الحادي عشر من أيلول عدم إعادة عرض الريبورتاجات عن هذه الحوادث، و ماعدا بعض الاستثناءات القليلة، امتنعت هذه الفضائيات عن عرض صور الناس الذين كانوا يرمون بأنفسهم من نوافذ ناطحتي السحاب في نيويورك. وكانت هذه الخطوة (التي أقدمت عليها تلك الفضائيات بمحض إرادتها) مثالا جيدا على الإحساس بالمسؤولية تجاه المجتمع، ذلك لأن عرض الريبورتاجات المصورة عن هذه الحوادث، خلال وبعد حدوثها مباشرة ألحق ضررا بالغاً بالحالة النفسية للملايين الأمريكيين وأدى إلى رفع معنويات الأرباب، وبعد إدراك هذه الحقيقة المرة، قامت بعض الفضائيات الأمريكية بعرض بعض اللقطات المتفرقة الثابتة (غير المتحركة) ومن دون صوت. و امتنعت عن عرض كل ما يلحق الضرر بأمركا والأميركيين. ولا شك في إن وسائل الأعلام الأمريكية تتمتع بمساحة واسعة من الحرية تفوق ما تتمتع به وسائل الأعلام العربية، ومع ذلك، فإن امن المجتمع الأميركي والمعايير المهنية والأخلاقية هي أكثر أهمية لديها من مصالحها الضيقة، فمتى تستيقظ ضمائر المسؤولين في الفضائيات العربية وبعض الفضائيات (العراقية) المشبوهة ويحترمون أخلاقيات المهنة ومشاعر المواطنين العراقيين وامن واستقرار العراق، أكثر من اهتمامهم بالإثارة والانتشار والمال.

حرية الصحافة بين التشريع والتطبيق

حرية الصحافة أحد أهم أشكال حرية الرأي و التعبير وهي المحك الحقيقي للحريات الأخرى وأداة أساسية في النقد والمتابعة والرقابة على أداء السلطة التنفيذية، والحرية الصحفية التي نقصدها، هي تلك التي تسمح بالنقد الموضوعي وتحري الوقائع وتقصي الحقائق وصولاً لإيجاد الحلول لمشاكل المجتمع. وهي القوة التي تصوغ أكثر من أي قوة أخرى الآراء و الأذواق والسلوك، ويرى بعض الباحثين ان حرية الصحافة يمكن النظر إليها من ثلاث زوايا وهي:

حرية المعرفة: وهي الحق في الحصول على المعلومات اللازمة لتنظيم حياتنا والحصول على قدر من المشاركة في الحكم، وهو حق اجتماعي لعامة الجماهير.
حرية القول: وهي الحق في نقل المعلومات، بحرية، وتكوين رأي في أي موضوع، والمناقشة حوله. وهو ما يقصد به "حرية الصحافة" وهو بدوره حق المجتمع تؤديه عنه وسائل الإعلام.

حرية البحث: وهي الحق في اتصال وسائل الإعلام بمصادر المعلومات، التي يجب معرفتها، ونشرها. وهو حق للمجتمع كذلك، تؤديه عنه وسائل الإعلام.
إن المسؤولية الأساسية للصحافة، هي الدفاع عن هذه الحريات الثلاث ضد كل تدخل خارجي، مهما كان مصدره سواء من جانب الحكومة أو القوى المؤثرة، في داخل المؤسسات الإعلامية نفسها. ان تشيبت حرية الصحافة في نصوص الدستور أو القانون، لا يعني، بالضرورة، توافر حرية الصحافة، وإنما ينبغي توافر ضمانات تدعم هذا الحق. وتنص قوانين الصحافة في ظل الأنظمة الديمقراطية و بخاصة في الدول الغربية المتقدمة، على منح الحرية لكل مواطن كامل الأهلية في إصدار أي مطبوع دوري دون إذن مسبق شريطة ان يتم لاحقاً اخطار الجهات المعنية بذلك، وكذلك

أعطاء الصحفي حق التعبير عن رأيه بحرية دون رقابة وضمن حق المواطن في الحصول على المعلومات الضرورية للأسهام في اتخاذ القرار الذي يمس حياته والمجتمع الذي يعيش فيه.

اما على مستوى الممارسة والتطبيق فان الحرية الصحفية نسبية و غير مطلقة حتى في أكثر الدول ديمقراطية والتي تضع خطوطا حمراء أمام العديد من الموضوعات الحساسة بالنسبة اليها دون ضغط أو أكراه مباشرين بل تفعل ذلك بأساليب شديدة الفعالية والذكاء، حتى لتبدو وكأنها لا تتدخل في شؤون الصحافة. اما الانظمة الأستبدادية فأنها لا تكتفي بوضع القيود المحجفة الواردة في قوانين الصحافة والمطبوعات بل تلجأ في كثير من الاحيان الى وضع مواد وبنود فضفاضة في تلك القوانين يمكن تفسيرها بأشكال مختلفة مثل الفقرات الخاصة بمصالح البلد العليا و الأمن الوطني وتقاليد المجتمع و عاداته وما شابه ذلك.

الصحافة رسالة قبل ان تكون مهنة و صناعة و من الضروري أن تلعب دوراً تنويرياً في نبذ تلك العادات وليس الحفاظ عليها وعدم المساس بها.

ورغم ان قوانين الصحافة حتى في ظل الانظمة المنغلقة تنص على ضمان حرية النقد، الا ان هذه الحرية شكلية الى حد كبير وتبقى حبرا على ورق أو يوضع لها سقف محدد لايمكن تجاوزه دون الوقوع تحت طائلة المساءلة. فعلى سبيل المثال نجد ان الأنظمة المغلقة بغشاء ديمقراطي زائف، تسمح بانتقاد المسؤولين من ذوي المناصب الدنيا أو المتوسطة و تحظر توجيه النقد الى رئيس الدولة او رئيس الوزراء أو الوزراء كما كان الأمر مثلاً، في ظل النظام الصدامي أو تمنع المساس بالأداء الحكومي عموماً و ان كان هذا الأداء فاشلاً أو فاسداً أو ظالماً و تلجأ الحكومات القمعية الى شتى اساليب التهيب والترغيب لمنع الكاتب او الصحفي من التعبير عما يعتمل في ذهنه او يشغل باله ومن تسجيل الوقائع والاحداث بصدق وامانة اذا كانت دلالاتها تتعارض مع وجهة النظر الرسمية، و الصحافة في ظل مثل هذه الأنظمة تتحدث في العادة عن الإنجازات و الأيجابيات فقط و تعتمد

الى أغفال السلبيات و الأخطاء ومواطن الخلل و الزلل، مما يؤدي الى تفاقمها و صعوبة معالجتها مستقبلاً. ان الهوة التي تفصل بين التشريع والتطبيق في أي بلد، تضيق او تتسع حسب هامش الحرية الحقيقية المسموح به للصحافة. يرى "شريدان"⁽³⁾: خير لنا أن نكون بدون برلمان من أن نكون بلا حرية صحافة، الأفضل أن نحرم من المسؤولية الوزارية ومن الحرية الشخصية ومن حق التصويت على الضرائب على أن نحرم من حرية الصحافة وذلك انه يمكن بهذه الحرية وحدها أن تعيد الحريات الأخرى إن عاجلا أم آجلا. حيث تلعب حرية الصحافة دورا كبيرا ليس في الوصول إلى الحقيقة فحسب بل أنها تشعر الصحفي بالارتياح والطمأنينة ، وتكون بمثابة الغذاء بالقياس إلى أجسام البشر.

المعايير الأخلاقية للعمل الصحفي

الأخلاقيات هي الاختيار الطوعي لما لا يمكن أن يفرض بالقوة، و لذلك يترك الأمر للصحفيين أنفسهم لا للحكومات أو السلطات لأن يضعوا المعايير لمهنتهم.

د. رشورت أيدر

معهد الأخلاقيات العالمية

يعتقد بعض الصحفيين أنه على حق دائماً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويظن ان حرية التعبير عن الرأي تسمح له أن يكتب ما يشاء عما يشاء. و يكتب احيانا ما لا يستحق الكتابة أو ما لا يجوز نشره، بل و اكثر من ذلك يعتقد انه معيار الحقيقة وان ما يكتبه هو عين الحقيقة، مهما أشتط في كتاباته.

بيد أن الصحافة - و هي السلطة الرابعة - شأن أية سلطة أخرى مفسدة، و الكثير مما ينشر في صحافتنا لا يتسم بتلك المعايير التي يعمل بها الصحفيون في البلدان الديمقراطية العريقة، التي ترسخت فيها معايير اخلاقية صارمة في الصحافة المهنية الحقّة.

ان ما يميز الصحفي عن غيره من المواطنين هو امكانية توصيل افكاره الى جمهور عريض من القراء. وأذا كانت هذه الأفكار تتضمن أساءة أو اتهاماً أو تشهيراً لشخص أو مجموعة اشخاص أو لمنظمة أو شركة أو تشويهاً أو تزويراً للمعلومات و الحقائق او حتى خطأ ما، فإن نشرها يلحق الضرر بين يتحدث عنه الكاتب.

و من اجل تفادي مثل هذه الحالات فإن الصحفيين و الناشرين - في المؤسسات الصحفية الرصينة، التي تؤمن بحرية الصحافة و المسؤولية الأخلاقية للصحفي وضعا طوعية مجموعة من "المعايير الأخلاقية للأداء الصحفي"، المنظمة للسلوك المهني

وتتألف من المبادئ و الممارسات الجيدة، التي تحدد ما هو صحيح يجب اتباعه و ما هو مضر- يعاقب عليه القانون - فيما يكتب أو بتعبير آخر ما هو مسموح بالكتابة عنه و ما هو محظور .

هذه القواعد ليست مطلقة و قد تتباين الى هذا الحد أو ذاك بين المجتمعات المختلفة نظرا لتباين القيم الاجتماعية والثقافية والظروف المحلية. لذا فأن لكل مؤسسة صحفية أو صحيفة واسعة الأنتشار في الغرب "ميثاق شرف صحفي" خاص بها يتضمن فلسفتها و مبادئها التي تعمل على أساسها، وقد تختلف فلسفات المؤسسات الصحفية الا انها تجمع على الألتزام بالحقيقة والدقة الموضوعية و الحياد و المسؤولية امام القراء. و ينبغي اتباع تلك الأخلاقيات خلال الحصول على المعلومات و تقييم أهميتها ثم توصيلها الى الجمهور.

ان القوانين الخاصة بالعمل الصحفي في العديد من البلدان الديمقراطية تجعل من تطبيق بعض هذه القواعد ملزما "الامتناع عن نشر الافتراءات، عدم التحريض علي مخالفة القانون الخ" وتترك الجزء الاخر لحسن نية و فطنة الصحفي نفسه وأعتقد ان افضل صيغة لهذه القواعد هي تلك التي صاغها الناشر البريطاني ديفيد راندال - حيث قال انها "مجموعة القواعد التي يجب ان يلتزم بها كل صحفي محترم او يحس بالجل عندما لا يلتزم بها".

و هذه القواعد لا يقتصر على الصحفيين فقط، بل على الكتاب و الأدباء و الشعراء الألتزام بقسم منها، حيث لايجوز لأحد منهم الأساءة لشخص أو لمجموعة أشخاص أو مؤسسة و ما الى ذلك.

ان الصحفي المهني، الذي يتحلي بالمسؤولية و يعرف قدر نفسه و مكانة صحيفته يسعى جاهدا لعدم الأخلال بهذه القواعد، دون تشريعات أو قوانين، مما يجنبه المشاكل و يرفع من شأنه في عيون القراء و يحظى بأحترام الذات و أحترام الآخرين له. ترى ما هي هذه القواعد؟

كما اشرنا فيما تقدم لا توجد لائحة موحدة ملزمة لـ "المعايير الأخلاقية للعمل الصحفي" و لكن ثمة معايير أخلاقية عديدة مشتركة تعمل بموجبها المؤسسات الصحفية و الصحفيون في بلدان العالم يمكن حصرها في البنود التالية:

١ - احترام الحقيقة وحق الجمهور في معرفة الحقيقة:

هذا المبدأ هو أول وأهم واجب للصحفي وحجر الزاوية في أخلاقيات مهنة الصحافة. ان جوهر عمل الصحفي هو تقصي الحقيقة و توصيل المعلومة والخبر الصحيح من مصادره الموثوقة للقارئ والمشاهد والمستمع دون تشويه أو تحريف.

لا صحافة و لا صحفي مهني من دون حقائق. و اذا كان الصحفي يود ان يخترع القصة عليه ان يكتب القصة الخيالية، اما اذا كان يريد اقناع الناس و التأثير في عواطفهم فأن عليه ان يعمل في مجال الاعلان او العلاقات العامة و ليس في الصحافة الأخرافية. الصحفي سواء اكان مراسلا ام مندوبا ام محررا ام ناقدا رياضيا فأنه يتعامل مع الحقائق قبل كل شيء.

تقول نكتة روسية ان ثمة خمس درجات للكذب، - الكذبة العادية والكذبة الصارخة والكذبة الصارخة جدا والإحصاء والانتباس. "نصف الحقيقة" غالبا ما يكون كذبة كبيرة أسوأ من الأفتراء أو الأختلاق. هناك العديد من الأساليب الدماغوجية التي تسمح بالكذب بأستخدام نصف الحقيقة و بالانتباس الأنتقائي. و التركيز على بعض التفاصيل الثانوية و الصاق التهم والأستناد اليها في الهجوم والأنتقال للتجريح الشخصي. ولن يكون ما يكتبه الصحفي - في مثل هذه الحالات - صحافة بل شيئا آخر.

لذلك فالصحفي الذي يشعر بالمسؤولية لا يحق له قانونا ان يكتب نصف الحقيقة و يتجاهل النصف الآخر، ومن حق القراء الأطلاع على المعلومات الدقيقة الكاملة من اجل تشكيل الصورة الحقيقية للأحداث و الأحتفاظ بثقة الجمهور ومن دون هذه الثقة لا توجد صحافة جديرة بهذا الأسم .

٢ - الألتزام بالموضوعية:

الموضوعية هي احدى اهم القيم في العمل الاعلامي التي تضمن التوازن والمصداقية و الحياد و النزاهة. ورغم صعوبة تحقيق كل أبعاد الموضوعية، الا ان الصحفي يستطيع أن يكون موضوعياً إذا أراد، وسعى من أجل ذلك.

حين يقوم الصحفي بجمع المعلومات حول موضوع ما، عليه ان لا يحاول بأي ثمن اثبات أو دحض وجهة نظر معينة. وهذا لا يعني بأن الكاتب لا يستطيع ان يقوم بجمع الأدلة في محاولة لأثبات فرضية معينة و لكن اذا كانت الشواهد و الأدلة، التي جمعها تخالف فرضيته، عليه التخلي عن رأيه المسبق و أن لا يحاول تعديل الحقائق لتتناسب مع وجهة نظره.

أي إخلال بالمضمون من شأنه تشويه صورة الصحافة والصحفي نفسه والجهاز الإعلامي الذي يعمل فيه.

٣- عدم الخلط بين الرأي و الخبر:

عدم خلط الرأي بالخبر، إحدى أبعديات العمل الصحفي ، فالخبر ملك القارئ، والمقال ملك صاحبه، باعتبار الأول عنواناً للحقيقة و الثاني مجرد رأي أو زاوية من زوايا النظر الى الحقيقة أو الحدث.

والصحافة المهنية هي التي تذكر أولاً الأخبار المعتمدة على المصادر الموثوقة وشهادات العيان، ثم تنشر الآراء والتحليلات ان وجد ، مع الحرص على تقديم آراء متعددة. كيف نفرق بين الخبر والرأي؟

"الخبر حر .. والرأي مسؤول"، بمعنى أن الخبر ملك للحقيقة و معياره الدقة، فالحرر مُلزم بنقله دون تشويه او تحريف أو حذف أو إضافة. أما الرأي فهو يعتمد تصوراً واحداً عن الحدث و معياره موضوعية الكاتب. ويختلف الناس في آرائهم و تصوراتهم لأن كل واحد يرى الحدث ويفسره من زاويته هو، وما يتوافر لديه من معلومات.

٤ - عدم اللجوء الى طرق ملتوية في الحصول على المعلومات:

هذه الفقرة، ربما هي الأكثر إثارة للجدل. و من الواضح ان المعلومات التي يحصل عليها الصحفي عندما يكشف عن هويته و يعلن أنه يمثل الجريدة الفلانية، تختلف كثيراً عن تلك التي يحصل عليها لو أنتحل هوية شخصية أخرى. فالإنسان - أي انسان - عندما يتحدث الى الصحفي و يعرف ان ما يتحدث عنه سينشر، يحاول أن يبدو موضوعياً، حريصاً على تقديم صورة ايجابية عن نفسه، في حين أنه لو تحدث الي شخص آخر فإنه يقول ما يجلو له وقد يكذب او يبالغ. و بتعبير آخر فإن المعلومات المستقاة منه لن تكون موثوقة و لا يمكن الاعتماد عليها ولا يجوز نشرها.

كما لا يجوز الحصول على معلومات أو صور من خلال التخويف أو المضايقة أو الملاحقة، و يمنع نشر مواد صحفية من مصادر أخرى لا تلتزم بهذه المتطلبات.

و عموماً فإن الصحفي المهني يقدم نفسه بصفته الصحفية و يصرح بأنه يجمع المواد لمقالة أو تحقيق صحفي، ما عدا الحالات الاستقصائية عن شخص او مؤسسة، و حتى في مثل هذه الحالات لا يتم استخدام المعلومات المتحصلة مباشرة، بل لأجل التمهيد لعمل لاحق و ليس للنشر.

٥- التعامل المهني مع مصادر المعلومات .

الالتزام بتحري الدقة في توثيق المعلومات، ونسبة الأقوال والأفعال إلى مصادر معلومة كلما كان ذلك متاحاً أو ممكناً طبقاً للأصول المهنية السليمة التي تراعى حسن النية. و على الصحفي الألتزام بحماية مصادر معلوماته، و عدم أفشاء الأخبار السرية للناس أو لزملاء المهنة، لأن ذلك قد يؤدي الى بعض الضرر لهذه المصادر، أو يجعلها تحجم عن الكلام مستقبلاً، مما يضر بمستوى سريان المعلومات الى المجتمع. و تأريخ الصحافة زاخر بمحالات تم فيها مقاضاة الصحفيين و لكنهم لم يكشفوا عن مصادر معلوماتهم.

و اذا كان الصحفي قد اتفق مع مصدر المعلومات على شرط معين او اكثر فأن عليه احترام الأتفاق و عدم أنتهاكه بأي حال من الأحوال. و اذا كان مصدر المعلومات اشترط عدم نشرها فلا يجوز للصحفي النشر، و حتى عندما يطلب المصدر نشر المعلومات فى توقيت معين فعلى الصحفي أن يحترم هذا الوعد من أجل الأحتفاظ بثقة المصدر.

٦- عدم الخلط بين النشاط السياسي و العمل الصحفي:

لا ينبغي للصحفي العمل فى أية وظيفة أخرى، إذا كانت تؤدي إلى الإخلال بأمانة الصحفي و صحيفته. و الصحفي و رؤساؤه يجب أن يعيشوا حياتهم الخاصة بطريقة تحميهم من تضارب المصالح، سواء أكان ذلك حقيقيا أم ظاهريا. إن مسئوليتهم تجاه الجمهور لها الأولوية قطعا. وهذه هي طبيعة مهنتهم.

و بحسب مجلة "النيو يوركر" فإن العديد من الجرائد فى الولايات المتحدة "لا تسمح للصحفيين بالتعبير عن آرائهم للعامة، أو المشاركة فى التظاهرات أو تعليق أزار انتخابية أو ملصقات على خلفية سياراتهم". و من جهة أخرى، هنالك العديد من المؤسسات الإعلامية حول العالم يعمل فيها صحفيون ناشطون فى الأحزاب السياسية و فى بعض الأحيان يتم تعيين هؤلاء الصحفيين بسبب انتمائهم السياسي. و فى كل الأحوال، فأن الانتماء السياسي يجب أن يكون خارج نطاق العمل الإعلامي.

و من مسؤولية الصحفي الاجتماعية عند تغطية قضايا ساخنة، تمثيل التنوع فى المجتمع، و البقاء على مسافة واحدة من الأجندات السياسية و توعية المواطنين بالأحداث الجارية.

٧- تصحيح الأخطاء

الصحفي كاي انسان آخر معرض لأرتكاب الأخطاء. و اذا أخطأ أو حرّف الحقائق أو تسرع في أستخلاص الأستنتاجات، عليه ان يبادر من تلقاء نفسه الى تصحيح ذلك قبل أي شخص آخر وأن ينشر التصحيح في المكان نفسه الذي نشرت فيه المادة موضوعة التصحيح. ربما يعترض رئيس التحرير على ذلك و لكن على الصحفي ان يحاول نشر التصحيح و هذا أضعف الأيمان.

٨- عدم استخدام المهنة كسلاح.

في حالة وجود أي نزاع مع شخصية أو منظمة ما، يميل بعض الصحفيين الى استخدام مهنته كسلاح للتخويف أحيانا، ومع ذلك، لا ينبغي له أن يفعل ذلك بأي حال من الأحوال مهما كان الأغراء قويا، و الأسوأ من ذلك حين يستخدم الصحفي موقعه للأبتزاز و هذا يدخل في باب الجرائم.

و اذا كان الخبر او الحدث يستحق النشر حقا ينبغي الكتابة عنه و ليس التهديد بنشره. اما اذا كان الحدث لا يستحق النشر، فمن الضروري عدم اللجوء الى التهديد، الذي يسيء ببساطة الى الصحفي نفسه و صحيفته و مهنته.

٩ - عدم استغلال المهنة للحصول على مكاسب شخصية:

يحظر على الصحفي استغلال مهنته في الحصول على أي هبات أو تبرعات مالية أو عينية أو مساعدات أخرى مهما كان نوعها أو صورتها ، من جهات أجنبية أو محلية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

أن الرشى و الهدايا، والمجاملات، والرحلات المجانية، والمعاملة الخاصة أو الامتيازات من أجل النشر أو لإخفاء المعلومات، كل هذا يمكن أن يؤدي إلى تنازل الصحفي عن أمانته وعن أمانة صحيفته. ولا يجب على الصحف قبول أي شيء له قيمة مادية مجانا. و على الصحفي تجنب الكتابة عن الاسهم او السندات التي يعلم أنه سيستفيد منها هو أو أقاربه المباشرين. إن الصحفي الذي يستخدم وضعه المهني لأغراض شخصية أو أنانية أو لدوافع أخرى غير جدير بالمهنة ويفقد ثقة الجمهور.

١٠ - عدم الخلط بين المادة الاعلانية والمادة التحريرية:

لا يجوز الخلط بين المادة الاعلانية والمادة التحريرية، ولا بد أن يتضح الفرق بين الرأي والاعلان، فلا تندس على القارئ آراء وأفكار سياسية ودعائية في صورة مواد تحريرية، ويجب أن يتم النص صراحة على المادة الأعلانية، (سواء التحريرية أو غيرها) بأنها اعلان.

١١ - احترام الأشخاص و خصوصياتهم :

يتعين على الصحفي خلال عملية جمع الأخبار وتقديمها، احترام الأشخاص وخصوصياتهم بعدم الخوض فيها وعدم نشر أسرارهم العائلية أو المهنية أو الأخبار الكاذبة عنهم، التي تنال من سمعتهم وكرامتهم أو مكانتهم الاجتماعية أو السياسية، نتيجة خلاف في الرأي أو تحريض من جهة ما أو من أجل الابتزاز المالي. وعلى الصحفي لا يحاول انتهاك حق الشخص في الاحتفاظ بحياته الخاصة بعيدا عن الأخبار. لأن التطفل على الحياة الخاصة للأشخاص مرفوض تماما ويماسب عليه القانون في معظم الدول ان لم يكن في كل دول العالم.

الهوامش :

(١) المقصود بمصطلح (الصحفي) هنا، المعنى الواسع له أي الذي يمارس العمل الصحفي في أي وسيلة من وسائل الأعلام ...

(٢) (١٩٠٢ - ١٩٧٨) درس هارولد دوايت لاسويل (Harold Dwight

Lasswell) عالم اجتماع أمريكي تأثير أجهزة الإعلام على تكوين الرأي العام.

(٣) لوفانو شريدان (١٨١٤-١٨٧٣) كاتب و شاعر و صحافي ايرلندي مشهور

بقصصه عن الأشباح، نشر قصصاً عما وراء الطبيعة في مجلة جامعة دبلن. وكثيراً ما تُعد روايته تورلوج أوبراين (١٨٤٦م) من بين أفضل الروايات.

القسم الثاني
الصحافة الورقية في عالم متغير

الطريق الى القاريء يبدأ من العنوان !

العنوان يقدم لنا معونة كبرى لضبط انسجام النص، وفهم ما غمض منه، اذ هو المحورالذي يتوالد ويتنامى ويعيد انتاج نفسه، فهو ان صحت المشابهة بمثابة الرأس للجسد.

الكاتب المغربي محد مفتاح

في خضم التغييرات المتسارعة للتكنولوجيا الرقمية والتدفق الاعلامي المتواصل، لم يعد لدى القاريء العادي متسع من الوقت لقراءة ولو جزء يسير من المقالات المنشورة، سواء في الدوريات الورقية المطبوعة أو على المواقع الألكترونية وبضمنها مواقع التواصل الأتجماعي على شبكة الأنترنت. ولم يعد حتى القاريء المتخصص في الأعلام أو الكاتب السياسي، ناهيك عن القاريء العادي، يقرأ الصحيفة من الغلاف الى الغلاف، كما كان الأمر قبل العصر الرقمي، بل يمر على صفحاتها بعينيه ولا يستوقفه الا العنوان المثير للانتباه او الجذاب أو الصارخ، الذي يتلائم مع خلفيته الثقافية وآرائه الفكرية وذائقته الأدبية ونطاق أهتماماته ويقرر بينه وبين نفسه، أي مقال يستحق القراءة، فيختار ما يناسبه ويهمل بقية المقالات.

وتشير نتائج الأستبيانات الصحفية لعدد من مراكز البحوث الإعلامية في العالم الى ان القاريء العادي يقرأ نص مقال واحد من بين كل خمس مقالات ويمر مرور الكرام على عناوين المقالات الأخرى، ليس بسبب ضيق الوقت فقط، أو لأنها غير جديرة بالقراءة، بل لأن عناوينها لا تشجع على قراءة نصوصها، فهي تبدو له اما ركيكة أو مملة خصوصاً في المواقع الألكترونية، التي لا تظهر على صفحاتها الرئيسية سوى عناوين المقالات أو بضع جمل افتتاحية لها، وينبغي النقر على العنوان لقراءة المتن في صفحة جديدة .

العنوان واجهة المقال أو بطاقته التعريفية ومفتاح الدخول الى النص والمدل بكلماته وصياغته على مضمونه. من هنا يتبين لنا ان وظيفة العنوان الرئيسية هي استمالة القاريء وتحفيزه على قراءة المقال، وينبغي ان تكون بداية المقال أيضاً جذابة وشائقة ومغرية، وهي اكثر أهمية من مئات الكلمات التي تليها، لأن البداية السيئة، التي لا تقدم للقاريء فكرة أو معلومة جديدة أو رأياً جديداً كالعنوان الممل، كلاهما لا يشجع على الأستمرار في قراءة المقال.

اذن فأن نجاح أي مقال يعتمد الى حد كبير على العنوان المثير للانتباه والبداية الشائقة، حيث يخيّل الى القاريء ان نص المقال سيكون شائقاً وقيماً. ولا شك ان جودة النص يعتمد على موهبة الكاتب وسعة ثقافته ورشاقة أسلوبه. وينبغي ان يكون النص جيداً مثل عنوانه. اما اذا كان النص محيياً لظن القاريء فأن الأخير يفقد ثقته بالكاتب والصحيفة في آن واحد.

في الصحف العربية والكردية تتولى " هيئة التحرير " اختيار عناوين الأخبار والتقارير والتحقيقات و تترك عناوين المقالات لكتابها، أما في الصحف الغربية الكبرى، فشمة اتجاه يرى ضرورة أن يكون هناك محرر متخصص في العناوين مهمته قراءة الموضوعات ووضع عناوين لها، وهو في المعتاد صحفي متمرس. لأن مهارة اختيار العناوين لا تأتي من فراغ ولكن وليدة تجارب وخبرات طويلة في المعالجة الصحفية .

اختيار عنوان المقال:

يلعب العنوان دوراً مهماً وأساسياً في تحقيق النجاح لأي معالجة صحفية وبخاصة مقالات الرأي وهو يعكس ذائقة الكاتب الصحفي ومهنيته، والعنوان الصحفي الجاذب هو الذي ليس فيه تكرار للصفات والأحوال وحروف الجر ، التي ليس لها داع أو لا تضيف بعداً معلوماتياً وجمالياً الى المتن. ولكل كاتب طريقته الخاصة في كتابة المقال واختيار العنوان المناسب له.

فالبعض يختار العنوان اولاً، ثم يشرع في كتابة المتن. أي ان العنوان يحدد للكاتب الأطار العام لمقاله وهو اطار مقيد لحرية الكاتب وتدفق أفكاره بأنسيابية وسلاسة، رغم أنه (أي الأطار) يساعد الكاتب في التركيز على الفكرة الأساسية للمقال وعدم خروجه عنه بأستطرادات زائدة عن الحاجة .

والبعض الآخر يشعر بصعوبة اختيار العنوان قبل الأنتهاء من كتابة النص بأكمله. وقد يغير العنوان مرات عديدة قبل ان يستقر رأيه على عنوان محدد!

ولكن كتابة مقال جيد عملية طويلة نسبياً وقد تستغرق من بضعة أيام الى عدة أسابيع. ولهذا السبب من المفضل ان يختار الكاتب عنواناً (مؤقتاً) لكي لا تتشتت أفكاره ويفقد تركيزه على الموضوع، ثم يشرع بكتابة مقاله وكلما طرأت في ذهنه فكرة جديدة يدونها، ثم يستمر في عمله وبعد الأنتهاء من كتابة المقال وصياغته، يدقق محتوى النص ويستخلص الهدف منه، والرسالة التي يود ايصالها الى القاريء، ويتمعن في مدى ملائمة العنوان(المؤقت) للمتن، ويلجأ الى تغيير العنوان الأولي مرات عديدة قبل ان يستقر رأيه على عنوان محدد من بين بدائل عديدة، شريطة ان يكون العنوان مدلاً على ما في داخل المتن. وهذه الطريقة تجمع محاسن الطريقتين الأولى والثانية.

ولكن في كل الأحوال ينبغي ان يتسم العنوان بالجادبية والأثارة، ولتحقيق هذا الهدف يجب ان يكون محتزلاً ومكثفاً، يعبر عن محتوى الموضوع في أقصر صيغة ممكنة ولا يتجاوز بضع كلمات.

أنواع العناوين التحريرية في الصحافة التقليدية أو الرصينة:

العنوان الجيد يجب أن يعطي القارئ غير المتخصص فكرة عن محتوى المقال بسهولة ويسر أو يحمل معلومات جديدة عن الموضوع المصاحب له ويتصل بالفكرة الأساسية للمقال. ثمة أنواع كثيرة من العناوين، سنتطرق ألى أهمها في ما يلي:

- ١ - **العنوان التعريفي:** ويستخدم عموماً في المقالات والدراسات والبحوث ويعبر عن الفكرة الأساسية للنص أو يلخص استنتاجاته النهائية.
- ٢ - **العنوان الوصفي:** وصف مركز للموضوع، بحيث يجذب الأتنباه لقراءة المتن. وهو النوع الأكثر شيوعاً في المجالات بشتى أنواعها.
- ٣ - **العنوان الأستفهامي:** أقل شيوعاً، ويعرض الموضوع في شكل سؤال مهم ومثير ويهم الجمهور.
- ٤ - **العنوان النقدي:** ويشير الى اتخاذ الكاتب موقفاً من الأحداث ويستخدم في المعتاد في الحوارات والتحقيقات الصحفية والمقالات النقدية.
- ٥ - **العنوان المقارن:** ويكون على اساس المفاضلة بين الافكار والاراء، ويعتمد على عنصر المقابلة بين حقيقتين او اكثر من الحقائق المتصلة بالموضوع.
- ٦ - **العنوان المثل او الحكمة:** ويكون على شكل حكمة معروفة او مثل معروف لدي القاريء، شريطة أن ينسجم وطبيعة المضمون الذي يحمله المتن.
- ٧ - **العنوان الطريف:** ويهتم بالجانب الطريف في الموضوع بحيث يثير ذلك اهتمام القراء وجذبهم للقراءة.

٨- **العنوان المقتبس:** ويستخدم في المعتاد للحوارات والمقابلات الصحفية ويكون مقتبساً من تصريح المسؤول او الشخصية التي يتم اجراء الحوار معها. أو اختيار جملة معبرة من نص المقال كعنوان له، وهذا الأختيار له محاسن عديدة، لعل أهمها ان العنوان في الوقت الذي يكشف محتوى النص، تكتنفه غلالة خفيفة من الغموض المحب أحياناً.

ما ينبغي تجنبه في أختيار العناوين :

- ١ - الكليشات التي تتردد بكثرة في الكتابات والمعالجات الصحفية.
- ٢ - العنوان الطويل ويفضل الا يزيد العنوان عن سطر واحد او عشر كلمات كحد أقصى.
- ٣ - "العنوان الأعمى" وهو العنوان الغامض، الذي لا يدل على مضمون المقال ولا يفهم منه الموضوع الذي يتحدث عنه الكاتب. مثل (رسالة إلى الخبراء).
- ٤ - تضمين العنوان معلومات و معاني أكبر مما يتضمنه نص المقال.
- ٥ - العنوان الرنان الذي يدعو القاريء لاكتشاف ما يريد كاتب المقال أن يوصله للقراء من رسائل، مثل "هبة من السماء" أو "درة بغداد" وما شابه ذلك.
- ٥ - الكلمات التي تعطي أكثر من دلالة.

كيف اصبحت الصورة القوة المحركة للصحافة ؟

يقول المثل الروسي: "من الأفضل ان تشاهد مرة من ان تسمع مائة مرة". ويقابله في المعنى، المثل الإنجليزي (A picture paints a thousand words) أي ان "صورة واحدة تساوي الف كلمة" .

الصورة في الصحافة الورقية :

الصورة في الصحيفة ليست مجرد صورة، بل طريقة أخرى لسرد النص المصاحب لها وتأكيدهما. لذا على الصحيفة الأهتمام بجودة الصور واختيار الأفضل منها والتي التقطت بذوق فني رفيع ومهارة حرفية.

الصورة وسيلة رائعة لجذب الأنتباه ولكن هذا لا يعني ان تكون لأي نص منشور صورة مصاحبة له، بل تكون مصاحبة للمواضيع الساخنة أو المواد التي تعالج قضايا مهمة.

الصور التي تظهر الحركة هي دائما مثيرة للاهتمام اكثر بكثير من اللقطات الساكنة المملة، لذا فان صور الناس على خلفية الاحداث افضل دائما. وينبغي على المصور الصحفي ان يظهر تداعيات الحدث او الظاهرة او المشكلة التي يغطيها وتأثيرها في الناس العاديين.

هكذا كان الأمر منذ نشر اول صورة فوتوغرافية بدائية في الصحافة الورقية التقليدية وحتى يومنا هذا، التي بلغت فيه تكنولوجيا التصوير درجة عالية من الدقة والأنتقان والجمال. ومنذ ظهور الصحافة الشعبية وصحافة التابلويد وصحافة الأثارة، اخذت الصورة تحتل مكان الصدارة فيها، فهي تعتمد - الى حد كبير - على الصور

المثيرة الجذابة، المليئة بالحركة والحيوية للفت الأنظار، لأن القاريء، يطالع اول ما يطالع من صحيفته العناوين والصور.

ان العنوان المصاحب للصورة يؤدي دوره كاملا اذا كان لا يكرر المعلومات التي يمكن استخلاصها من الصورة وحدها بل يضيف اليها معلومات جديدة او تعليقات ذكية لمحة. وعلى أية حال فان على المراسل او المحرر المسؤول، ان يضمن العنوان اقصى ما يمكن من المعلومات المركزة.

اما الصورة المصاحبة لاي تغطية اخبارية او مقال فأنها تكون غامضة من دون وجود عنوان لها ومن دون الاجابة على الأسئلة، التي قد تطرأ في ذهن القاريء - المشاهد. من؟، أين؟، متى؟، كيف؟، ولماذا؟ . لأي سبب؟ وغيرها، والتي تعجز حتى أكثر من صورة الأجابة عنها.

ان طبيعة العلاقة بين الصورة والنص والمساحة التي يشغلانها في الصحيفة يعتمد بطبيعة الحال على نوع المطبوع والهدف من النشر.

ان صورة بعينها يمكن تأويلها على نحو مختلف حسب النص المصاحب لها و تصميمها الجرافيكي او طريقة نشرها في هذه الوسيلة الإعلامية أو تلك.

الصورة في الصحافة الألكترونية :

وبظهور الصحافة الألكترونية أكتسبت الصورة اهمية متزايدة وتلعب دورا لا يقل عن دور المعالجة الصحفية النصية، في توضيح المحتوى وأغناؤه. فالمتصفح يمر بعينه على المقال او الخبر محاولا ادراك ان كان يستحق القراءة. لذا من الضروري للصحيفة الألكترونية اجتذاب انتباه المتصفح على الفور بشيء ما، واكثر الوسائل فعالية - هي الصورة الجذابة المثيرة للانتباه.

والصورة أشد وقعا وأكثر فعالية من مقطع (الفيديو)، لأن المتصفح يصرف في العادة حوالي ١٥ - ٢٠ ثانية في الأقل قبل ان يتمكن من مشاهدة بداية المقطع، ثم ليقرر ان كان سيستمز في مشاهدته حتى النهاية. هذا اذا كانت سرعة الأنترنييت

كافية لمواصلة المشاهدة دون انقطاع او عدم الأنتظار لتحميله. ولكي يتحمل المتصفح كل ذلك يجب ان يكون مقطع الفيديو مهما وممتعا، اما الصورة فأنها تتحدث عن نفسها بنفسها ولا تحتاج من المتصفح بذل أي جهد يذكر.

ولدي مقارنة الصورة بالنص، نرى ان كتابة النص الجيد تتطلب موهبة و خبرة متراكمة على المدى الطويل ومعرفة بدقائق اللغة واسرارها او معرفة القواعد اللغوية والأملاء في الأقل، فى حين ان التقاط الصور امر في غاية البساطة والسهولة. وفي وقتنا الراهن اصبح من الممكن التقاط الصور ذات النوعية الممتازة بواسطة الهواتف الذكية، التي تسهل أيضاً عملية ارسال او تبادل الصور، فهي دائمة الأتصال بالشبكة التي توفر هذه الخدمة.

كما ان شبكة الأنترنت خلقت فرصا كثيرة للتفاعل ولنشر الصور، فمواقع التواصل الأتماعي وبضمنها موقع (تويتر) كانت بداية تطورها تعتمد في المقام الاول على النص. واصبحت الصورة ركنا من اركان اقتصاد هذه المواقع بعد ظهور الهواتف الذكية وانتشارها والتي تتوفر فيها امكانية التقاط صور ذات نوعية ممتازة .

وثمة اليوم مواقع للتواصل الأتماعي متخصصة في نشر وتبادل الصور مثل موقع (Instagram)، الصورة اكثر الوسائل بساطة وشمولية لنقل رسالة معينة على الفور الى اكبر عدد ممكن من الناس، في حين يتطلب رسالة نصية معرفة اللغة واحيانا حتى الترجمة. ولهذا فأن الصورة هي الانسب للانترنت المفتوح على العالم بأسره، والصورة مفهومة دون الحاجة الى معرفة اية لغة. والمواقع التي تعتمد على الصورة والتطبيقات المتعلقة بها مربحة اقتصادياً أيضاً.

قراءة النص المكتوب على الشاشة عملية متعبة احيانا وتتطلب الأنتباه من قبل المستخدم. أما الصور فيمكن تقليبها ومشاهدتها الواحدة بعد الأخرى لساعات من دول ملل أو كلل ومن دون التفكير طويلا حولها. وأضاف الى ذلك المستخدمون الذين يرسلون للمواقع صوراً لنشرها مجاناً من دون أي مقابل مادي.

لغة التصوير :

الصور التي يرسلها المستخدمون من كافة انحاء العالم الى المواقع الألكترونية المختلفة وفي مقدمتها موقع (الفيسبوك) تشكل صورة عالمنا اليوم بكل ما فيه من انماط الحياة في لحظة معينة. وثمة ظاهرة جديدة تمتاز بها عصرنا وهي ظاهرة (SELF) التي تعكس احدى سمات عصرنا الاناني. فعندما يلتقط الشخص لنفسه صورة بكامرته فإنه يود تقديم نفسه وشخصيته المختلفة عن الآخرين الى العالم. ونظراً للدور المتعاظم الذي تلعبه الصورة في العمل الصحفي، يتساءل العديد من خبراء الأعلام عما اذا كان من الواجب على الصحفي ان يتقن مهارة التصوير أيضاً ولا يكتفي بالمعالجة الصحفية النصية .

وخلافاً للوصف النصي او الكلامي الداخلى الى الوعي الانساني بتسلسل منطقي متتابع وبتباً نسبي فإن المعلومة المرئية (الصورة) بفضل وضوحها وخصوصيتها تنطبع في الذهن على الفور، فهي قادرة على التأثير بقوة عاطفية كبيرة في القاريء - المشاهد وعلاوة على ذلك من المعروف جيداً ان الصورة الستاتيكية (المستقرة، الثابتة) تمتلك خاصية الانطباع على نحو عميق ولزمن طويل في الذاكرة البشرية.

ويبدو ان هذه المميزات وغيرها دفع البعض من منظري الاعلام الى القول ان لغة التصوير لغة عالمية لجميع الشعوب والبلدان.

وثمة مقولة مشهورة للمصور الاميركي المشهور ادوارد ستيهين (Edward Steichen ;1973 - 1879) يؤكد فيها "ان صورة واحدة يمكن ان تحل محل عشرة الاف كلمة بشرط ان يكون مصحوباً بعشر كلمات"

ان وجود نص الى جانب الصورة يساعد على قراءة الموضوع واستيعابه على نحو اعمق وافضل. بأستثناء الصور الفنية المعبرة الملتقطة من قبل مصورين محترفين على درجة عالية من المهارة والأتقان والتي تعبر عن الفكرة من دون الحاجة الى اي نص تفسيري.

انتهاك وحدة المعنى بين النص والصورة :

تاريخ الصحافة زاخرة بامثلة على اللبس والغموض و سوء الفهم الناجم عن انتهاك وحدة المعنى بين الصورة والنص المصاحب له ويتعبير آخر، بين ما توحى به الصورة من معنى وبين محتوى النص المصاحب له، والأسوأ من ذلك تزوير معنى الصورة على نحو متعمد عن طريق نص مصاحب لها يختلف في معناه عما توحى به الصورة. ولدينا مثل صارخ على هذا الأنتهاك: يقول المفكر الراحل ادوارد سعيد في كتابه "تغطية الأسلام":

"خصصت مجلة"تايم" موضوعها الرئيسي للإسلام بتاريخ ١٦ ابريل ١٩٧٩ وزينت غلافها بلوحة للفنان الفرنسي جيروم تصور مؤذنا ملتحيا يقف على منذنة ويدعو المؤمنين بوقار الى الصلاة، وكانت اللوحة تتميز بالتنسيق الشديد والمبالغة الصارخة مثل جميع فنون الاستشراق التي شهدها القرن التاسع عشر، ومن دلائل التناقض الزمني ان تكون هذه اللوحة الوقورة مزينة بكلمات لا علاقة لها بها وهي "احياء الأسلام" ولم اجد افضل من هذا الغلاف للدلالة على الفرق بين موقف اوربا وموقف امريكا تجاه موضوع الاسلام، اذ حولت المجلة لوحة هادئة زخرفية، كانت تعتبر في اوربا جزءاً من الثقافة العامة لا اكثر، الى صورة قادرة - بفضل الكلمتين المضافتين - على الدلالة على ما يشغل العقل الأمريكي لحد الهوس."

لذا فإن النص المصاحب للصورة يمكن ان يؤدي الى تغيير او حتى قلب معنى الصورة الحقيقية التي لا تشوبها شائبة.

والى جانب التضليل المتعمد، ثمة التحيز الناجم عن كيفية اختيار لحظة وزاوية التصوير او تحريف الصورة بالرتوش او المونتاج عن طريق الفوتوشوب.

صحف بلا صور:

قبل بضع سنوات اعتقلت السلطات الجورجية ثلاثة مصورين مشهورين بتهمة التجسس لحساب الأستخبارات الروسية، بينهم المصور الشخصي للرئيس الجورجي السابق سكاشفيلي. واحتجاجا على هذا الأعتقال صدرت صحف المعارضة في اليوم التالي وهي خالية من الصور، وظلت المساحات المخصصة لها خالية، على غير العادة، وادرك القراء أهمية الصور في الصحافة، لأن تلك الصحف بدت غريبة الشكل وكأن شيئا ما ينقصها، وغياب الصور قللت حتى من أهمية النصوص المنشورة فيها. وقد تكررت هذه التجربة في صحيفة "ليبراسيون" الفرنسية التي حجبت كل الصور من عددها الصادر في ١٤ أكتوبر سنة ٢٠١٣ احتجاجا على هضم حقوق المصورين وعدم تقييم جهودهم على النحو المنشود. وكما كان الأمر في جورجيا أظهرت الأطارات الفارغة مدى أهمية الصور في الصحافة، سواء أكانت صحافة ورقية أم الكترونية.

دروس وعبر من تجربة صحفية ناجحة

ليس من السهل على أى صحفى حر ومستقل العمل فى صحيفة حزبية مؤدلجة أو صحيفة رسمية موجهة تنطق بأسم حزب حاكم فى ظل نظام شمولى اواستبدادى، لا تنشر الا ما يوافق سياسة الحزب من أخبار مشوهة ومنحازة واحكام جاهزة وآراء مسبقة ان كانت صحيفة حزبية او تعمل جاهدة لتبييض عمل الحكومة وتجنب كل ما يتسبب بأقلاقها أو يخالف مصالحها وتلميع صورة (القائد الضرورة) ان كانت صحيفة حكومية. وما يزيد الطين بلّة الحذر الشديد للمشرفين على الصحف الحزبية والحكومية من تناول أى نقد بناء يوجه الى الحزب او الحكومة او التنطرق الى موضوعات محرمة وما أكثرها فى ظل الأنظمة القمعية مثل قضايا الفساد وانتهاك حقوق الإنسان وغياب الحريات العامة وغيرها وذلك حفاظا على مناصبهم وامتيازاتهم وهم فى العادة ملكيون أكثر من الملك. والصحفى الشريف فى مثل هذه الصحف يكون امامه خياران كلاهما: اما ان يستسلم لمشيئة السلطة ويخسر بذلك نفسه وحرية التعبير عن آرائه ومواقفه او يترك العمل الصحفى وهو مصدر رزقه الوحيد ومهنته المحببة التى كرس حياته من اجلها.

ولكن عندما يشعر النظام الحاكم بأن الأستمرار فى تكميم الأفواه وقمع المعارضة وانتشار الأستياء والتذمر بين أبناء الطبقات المسحوقة يشكل خطرا على استمراره فى الحكم يلجأ الى اعطاء هامش من حرية النقد للصحافة الحكومية ومنح امتيازات اصدار صحف جديدة (مستقلة) شكلا وممولة وموجهة من قبل الحكومة فعلا، وذلك لأمتصاص الغضب الشعبى فى الداخل وتجميل صورة النظام فى الخارج. ولدينا مثال صارح على ذلك، حيث لجأ النظام الصدامى فى أعوامه الأخيرة الى اصدار عدد من الصحف الأسبوعية التى تتطرق الى موضوعات محرمة او تتناول بالنقد أعمال وقرارات مسؤولين حكوميين من الصف الثالث (درجة مدير عام فما دون).

وهكذا كان الوضع فى روسيا فى فترة ما بعد (ذويان الجليد) حيث اضطرت السلطة السوفيتية تحت الضغط الشعبى واشتداد عود حركة المنشقين الى اعطاء هامش من حرية التعبير الى الصحف الثقافية على وجه الخصوص، لأن المثقفين السوفيت كانوا فى طليعة من كان يتصدى للنظام الشمولى السوفيتى.

والفرق الجوهرى هنا بين الصحافة (الأهلية) الصدامية الغبية وبين الصحافة الروسية الرصينة الذكية، ان العاملين فى صحف صدام كانوا من المرتزقة الذين دجنهم النظام الفاشى، اما العاملون فى عدد من الصحف السوفيتية الواسعة الأنتشار، فقد كانوا من الكتاب والصحفيين المتعطشين الى الحرية والمتطلعين الى مستقبل افضل لشعبهم.

كان هؤلاء الكتاب الروس من الذكاء بحيث يصعب وضعهم فى خانة (المعارضين) للنظام القائم ومن المهارة المهنية بحيث تعجز معها الرقابة الحكومية الصارمة عن ايجاد مآخذ على المقالات والتحقيقات المنشورة فى صحفهم. وسنتطرق فى الفقرات اللاحقة لتجربة صحفية ناجحة وفريدة، ربما لا تتكرر فى اى مكان أو زمان آخر ولكنها زاخرة بالدروس والعبر. فإلى الصحفيين العراقيين والعرب الأحرار الذين أرغمتهم الظروف على العمل فى الصحافة الحزبية والحكومية فى بلادنا أهدى هذا المقال.

صحيفة روسية أسهمت فى صنع الأحداث وتغيير الواقع

لا تكتسب الصحيفة - أى صحيفة - أهميتها ونفوذها من سعة انتشارها وحضورها فى الساحة الإعلامية فحسب، وانما أيضا وربما فى المقام الأول من مدى تأثيرها فى اتجاهات الرأى العام وتعبيرها عما يشغل اذهان القراء من قضايا تمس حياتهم ومستقبلهم ومدى اسهامها فى تغيير الواقع نحو الأفضل. وانطلاقا من هذه الحقائق، يمكننا القول ان الدور الذى لعبها صحيفة "ليتراتورنايا غازيتا" أى "الصحيفة الأدبية" الروسية فى التحولات الجذرية التى شهدتها المجتمع الروسى خلال العقود الثلاثة الماضية، لا نظير له فى تأريخ الصحافة العالمية.

تأسست "ليتراتورنايا غازيتا" فى عام ١٩٢٦ كصحيفة تمثل الأدب السوفييتى الوليد، ثم اصبحت الصحيفة المركزية الناطقة بأسم "اتحاد الكتاب السوفييت" بعد تأسيس الاتحاد المذكور فى عام ١٩٣٤. وقد ظلت طوال أكثر من ربع قرن محدودة التأثير والنفوذ فى ظل الرقابة الأيديولوجية المترتبة. وبعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى الذى انعقد فى اكتوبر عام ١٩٥٦ وخطاب خروشوف الشهير فى هذا المؤتمر حول الجرائم الدموية للعهد الستالينى، وفى أجواء الأنفتاح النسبى فى فترة ما عرف ب(ذوبان الجليد) حدث تحول مهم فى سياسة الجريدة وتوجهاتها وطراً تغيير كبير فى تحريرها واخراجها. وصدر أول عدد من الصحيفة فى عهدها الجديد مع بداية عام ١٩٥٧.

لقد اراد المخططون الأيديولوجيون فى قيادة الحزب آنذاك ايجاد (صمام أمان) لتصريف بخار الغليان الذى طال احتباسه ومحاطبة المثقف الذكى والمستقل التفكير الذى تنتابه الشكوك حول مصداقية الصحافة الرسمية وما تنشره حول الأجازات المتتالية فى شتى الميادين. ولكن الواقع أرحب دائماً مما يفكر فيه المخططون، فقد تحولت الصحيفة تدريجياً الى منتدى فكرى للمثقفين الروس واصبحت صفحاتها ميداناً للحوار الفكرى الخصب بين هؤلاء المثقفين وأخذت تنشر نتاجات الكتاب المستقلين فكراً الذين لم تكن السلطة تنظر اليهم بعين الأرتياح وتتناول بالنقد والتحليل ما تحجم الصحافة الرسمية عن الخوض فيه أو التطرق اليه وتثير قضايا تتحاشاها تلك الصحافة وتنظر الى ما وراء الأفق من فوق رؤوس الرقباء الذين لم يكن يفارقهم التفاؤل الحزبى السطحى.

واستطاعت "ليتراتورنايا غازيتا" بمعالجاتها الذكية ولغتها غير المباشرة الحفاظ على خط التوازن الدقيق بين المسموح والمنوع وخاضت مغامرة معقدة وجريئة فى آن معا وانتصرت على الرقابة فى نهاية المطاف. ورغم ان (ليتراتورنايا غازيتا) ظلت صحيفة سوفييتية تنطق بأسم اتحاد الكتاب السوفييت ولم تكن قادرة أن لا تكون كذلك وبصرف النظر عن اسمها، الا أنها أصبحت من الناحية العملية لسان حال المثقفين الروس بكل جدارة. ويمكن القول أن هذه الصحيفة هيأت الأجواء للتغييرات التى حدثت فى الأتحاد

السوفييتى فى ما بعد ونعنى بذلك "البريسترويكا" وما أعقبها من تحولات جذرية والانتقال من النظام الشمولى على النمط السوفييتى الى الرأسمالية الليبرالية.

وبعد انهيار الأتحاد السوفييتى وظهور صحف منافسة كثيرة وتردى الوضع الأقتصادى فى البلاد وانحياز "ليتراتورنايا غازيتا" الكامل الى التيار الليبرالى، تقلص توزيعها من خمسة ملايين الى اقل من ربع مليون نسخة. وكان هذا نتيجة حتمية، ليس لأن القارئ العادى لم يكن قادرا على شراء الخبز، ناهيك عن اقتناء الصحيفة، بل لأن "ليتراتورنايا غازيتا" أساقت كثيرا وأوغلت فى التأييد المطلق للنخبة الحاكمة الجديدة التى رفعت شعارات الديمقراطية الليبرالية والأقتصاد الحر، فى وقت كان الفساد الأدارى يستشرى فى أجهزة الدولة. ويعانى فيه المواطنون من ضنك العيش نتيجة لتراجع الأنتاج الصناعى والزراعى وارتفاع أسعار السلع الضرورية والخدمات. وقد اعترف - رئيس تحرير الصحيفة - فى مقاله الأفتتاحى لمناسبة مرور (٥٠) عاما على صدور الصحيفة بشكلها الجديد، بأن هيئة تحرير الصحيفة لم تلحظ على الفور أنحراف الليبراليين ولم تفتح صفحاتها - كما كان الأمر فى أواخر العهد السوفييتى - للأراء الأخرى ووعد بتصحيح هذا الخطأ الفادح وذلك بجعل الصحيفة مفتوحة من جديد لكل المثقفين، جامعا على صفحاتها كتابا من شتى الأتجاهات والتيارات السياسية والأيدولوجية والأدبية والفنية ومعبرة عن كل تعقيدات المرحلة الراهنة التى يمر بها المجتمع الروسى.

وأردف قائلا: ان حرية الكلمة لا تعنى، حرية فرض رأى معين على الآخرين، بل اتاحة الفرصة لكل انسان أن يعبر عن رأيه الخاص حول كل ما يجرى حوله وله مساس مباشر بحياته ومستقبله وعلى "ليتراتورنايا غازيتا" أن تكون محاورا ذكيا لكل مفكر ومثقف ومن دون هذا الحوار تظل الصحيفة مجرد أوراق ميتة لا قيمة لها على الأطلاق.

هل تشكل الصحافة المدنية خطراً على الصحافة التقليدية؟

الصحافة التقليدية

الصحافة التقليدية الرصينة في صورتها الليبرالية الغربية الناضجة، تلتزم الموضوعية والحياد في نشر المعلومات وتتخذ دور المراقب الخارجى، الذي يقف فوق التل ولا يهتم كثيراً بما يحدث في الحياة العامة ولا يقحم نفسه في معالجة المشاكل والنزاعات القائمة في المجتمع، التي يتحدث عنها. أي أن تدفق المعلومات من الصحفي إلى المتلقي هو باتجاه واحد. ولا يوجد أي إتصال مباشر أو تفاعل حقيقي بين الطرفين، إلا في حالات نادرة.

والدور الحقيقي لهذا النوع من الصحافة هو دور الناقل للخبر أو المخبر والمتفرج مجسداً للمثل العربي المعروف: وما على الرسول إلا البلاغ المبين، ثم الإنسحاب بعد ذلك. هذه الصحافة - مثلة بنموذجها الأميركي - الأكثر تطوراً وانتشاراً في العالم - تراجع دورها وأنحسر تأثيرها، في أواخر العقد الثامن من القرن الماضي وتجلي هذا التراجع في إعراض القراء عنها وهبوط أرقام توزيعها.

وشرعت المؤسسات الصحفية ومعاهد البحوث الإعلامية المتخصصة في الولايات المتحدة الأميركية بإحجاز مشاريع بحثية وإستقصائية بهدف الوقوف على الأسباب الحقيقية لهذا التراجع. وتبين أن السبب الرئيس يعود إلى عدم التواصل بين الصحافة وبين الرأي العام وإبتعاد الصحفيين عن هموم المواطنين ومشاكلهم الحياتية الملحة وإهمال دورهم وآرائهم.

الصحفي التقليدي يقتصر دوره على تقديم المعلومة، وبما أن مصادر المعلومات أصبحت كثيرة، ومتنوعة للغاية، حيث أن الإنسان المعاصر يواجه يومياً أيضاً من

المعلومات، التي لا علاقة لها على نحو مباشر، بما يشغل فكره وبالمشكلات التي يعانيتها، لذا فإن قيمة هذه المعلومات ليست كبيرة لديه، مما يضعف دور الصحفي وتأثيره في المجتمع ويؤدي في غالب الأحيان الى إعراض القراء عن اقتناء الصحف، لهذا السبب تحديدا وليس لأي سبب آخر، خاصة أن، أسعار الصحف في الغرب، أسعار رمزية، فهي لا تعتمد على المبيعات من أجل تغطية تكاليف إصدارها، بل على الإعلانات في المقام الأول، وثمة العديد من الصحف، واسعة الإنتشار توزع مجانا. الصحافة التقليدية في الغرب، ترتبط بمصالح النخب السياسية والإقتصادية، وتنقل آراء وأخبار هذه النخب أولا بأول. يقول أحد الصحفيين الأميركيين: "إن المؤسسات الرسمية - والتي يطلق عليها أسم "الصدر الكونكريتي الأعظم" - هي التي تغذي يوميا الصحفيين، الذين لا يهتمون كثيرا بما يقوله المواطن العادي". حقا ان المواطن البسيط، قد لا يقول شيئا مهما ولكن على الصحفي ان يصغي اليه جيدا، ليس من أجل الحصول على المعلومة فقط، بل الأهم من ذلك، في سبيل فهم جوهر المشكلة التي يعاني منها.

الصحافة المدنية

ظهرت خلال العقدين الأخيرين، ممارسات صحفية جديدة، تختلف الى حد كبير عن الصحافة التقليدية منها، الصحافة المدنية (Civic Journalism) أو صحافة المجتمع المدني (Community Journalism) أو الصحافة العامة (Public Journalism)، وهي مسميات لمنظ جديد من الصحافة، ظهر لأول مرة في الولايات المتحدة الأميركية قبل حوالي عشرين عاما وانتقل في ما بعد الى العديد من البلدان المتقدمة. وتتشابه مفاهيم هذه الأسماء في نظر خبراء الصحافة في الوطن التارخي لظهورها - الولايات المتحدة الأميركية - في حين أنها تتباين الى هذا الحد أو ذاك في البلدان الأخرى، ولم تتحول بعد الى مصطلحات مستقرة تماما، نظرا لتباين تطبيقاتها

في البلدان المختلفة، بسبب طبيعة النظام السياسي القائم وسقف الحرية الصحفية المتاحة والتطور الثقافي في هذا البلد أو ذاك.

ويخلط بعض الكتاب العرب والعراقيين بين الصحافة المدنية - وهي صحافة أنتشرت قبل ظهور الأنترنت - وبين صحافة المواطن (Citizen Journalism)، التي تعد أحد أشكال الصحافة الألكترونية والتي ظهرت الى الوجود بفضل الشبكة العنكبوتية. الصحافة التقليدية تكتفي بالحصول على الحقائق الجاهزة - ان صح التعبير - وتحديد المواقف منها. أما في الصحافة المدنية، فأن القراء والصحفيين معا، هم الذين يحددون محتوى الصحيفة.

هذا النمط الصحفي الجديد لا يكتفي بتغطية الأحداث والمشاكل القائمة في المجتمع، كما تفعل الصحافة التقليدية، بل يضطلع بدور أهم من ذلك بكثير وهو التفاعل المتعدد الجوانب للصحفيين مع الجمهور القارئ، عن طريق الاستطلاعات والمسوح ومجموعات النقاش وتنظيم الندوات والأجتماعات وتحليل البيانات من اجل تحديد الأبعاد الحقيقية للقضايا السياسية والأقتصادية والثقافية، التي تهم المجتمع وأستخلاص النتائج الصحيحة بشأنها، وطرح الحلول المناسبة لها. وهذا لا يعني ان الصحفيين يفقدون حقهم في التعبير عن آرائهم، لأنهم طرف أساس في هذه العمليات. يروق للصحفيين - العاملين في الصحافة التقليدية - كثيرا، الحديث عن الحرفية والمهنية في العمل الصحفي، ولكن المهنة الصحفية في تغير مستمر، وأهم هذه التغيرات هو الأنتقال من الصحافة اللامسؤولة الى الصحافة المسؤولة، من دور الصحفي التقليدي المتفرج على الأحداث والناقل لمشاكل المجتمع الى الصحفي الملتزم بقضايا المجتمع، الذي يتحمل مسؤولية اجتماعية ومهنية وأخلاقية ويسهم في الجهود الرامية الى تعزيز المجتمع المدني. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال، الإنحياز أو التخلي عن الموضوعية والحياد، لأن الهدف المشترك الذي يسعى اليه الطرفان - الصحيفة والجمهور - هو تنشيط المجتمع المدني وتعزيز الروح الجماعية وترسيخ الديمقراطية، دون موقف مسبق من هذه القضية أو تلك أو الإنحياز الى أية جهة كانت.

حسب علمي - وأرجو أن أكون محظناً - ليس لدينا لا في العراق ولا في دول الشرق الأوسط لحد الآن صحافة من هذا النوع ولكنني على ثقة أنها ستظهر إن عاجلاً أم آجلاً، إن كنا نعيش حقاً في عصرنا الراهن ولنسنا على هامشه، كما كنا طوال دهور طويلة. الصحافة المدنية، صحافة جادة ومسؤولة، تضع كل طرف أمام مسؤولياته (الجمهور - الصحافة - السلطة) مما يسهم في إيجاد الحلول السريعة لقضايا المجتمع الملحة والمشاركة في صنع القرارات.

القارئ العراقي العادي، يعرف اليوم عن الساسة والتطورات السياسية أكثر مما يعرف عن جاره أو منطقتة أو مكان عمله. نحن منغمسون في مطبخ السياسة أكثر من الأندماج والتفاعل مع مجتمعنا. لقد توقف كثير من الناس عن الإهتمام بالأشياء التي تمس حياة كل منا، توقفوا عن لعب دورهم الإجماعي الفاعل، وربما كان أحد أسباب ذلك، عدم وجود صحافة مدنية عراقية بالمعنى المتعارف عليه عالمياً لهذا المصطلح .

إذا كنت - أيها القارئ العزيز - من القراء المواظبين على قراءة الصحف الجادة وأردت التمييز بين الصحافة المدنية والصحافة التقليدية، فما عليك الا أن تختبر إحساسك في يوم لم يتسن لك فيه قراءة صحيفتك المفضلة، سيخالجك شعور بأنك تفتقدها، وانك أصبحت خارج أحداث المجتمع الذي تعيش فيه وتتفاعل معه، رغم وجود وسائل اعلامية أخرى كثيرة في متناول اليد، مثل هذه الصحيفة ضرورية للناس ولتعزيز وتعميق الديمقراطية. أما اذا لم يساورك مثل هذا الشعور، فإن صحيفتك، لا تختلف عن أية صحيفة تقليدية أخرى، فهي لا تؤثر في المجتمع ولا تتأثر به، ووجودها أو إختفائها غير مهم لك وللآخرين.

هل انتهى زمن الصحافة الورقية ؟

١- الصحافة الورقية في أزمة :

شهدت الصحافة الورقية خلال السنوات الأخيرة أزمة حقيقية، أخذت تتفاقم من سنة الى اخرى فى العديد من الدول الغربية المتقدمة نتيجة لثورة الاتصالات والمعلومات وظهور شبكة الأنترنت . وتتمثل هذه الأزمة فى عزوف الكثير من القراء عن اقتناء أو مطالعة الصحف الورقية و نشؤ جيل جديد لم يعد يتعامل مع الورق، و في تغيير أنماط الأهتمام والقراءة لدى مجتمع المعرفة، وشيوع ثقافة الحصول المجاني على المعلومة. كل هذا أدى الى التراجع المتواصل لمبيعات الصحف الورقية وانخفاض عائداتها من الإعلانات، التي تتحرك بسرعة صوب شبكة الإنترنت.

وقد لجأت مجموعة كبيرة من الصحف ذائعة الصيت الى تقليص أرقام توزيعها و الغاء آلاف الوظائف وتسريح عدد كبير من العاملين فيها، بينها صحف، واسعة الانتشار مثل "شيكاجو تريبيون"، "بوسطن غلوب" و "انجلوس تايمز"، و حتى المجلة الأوسع أنتشاراً فى العالم وهى مجلة "تايم" الأميركية الشهيرة . و ثمة صحف اخرى، تحولت الى صحف رقمية، مثل "كريستيان ساينس مونيتور" التي الغت طبعتها الورقية منذ العام ٢٠٠٨ واكتفت بنسخة رقمية على موقعها على شبكة الأنترنت.

و اعلنت مجلة "نيوزيك" الأسبوعية الأميركية الشهيرة توقف نسختها الورقية عن الصدور منذ نهاية العام الماضي و اقتصارها على نسختها الألكترونية التي حملت عنوان "نيوزويك غلوبال" من بداية العام الحالي. كما توقفت مجلة "يو أس نيوز أند ريبورت" وهى الثالثة الأوسع أنتشاراً فى أميركا فى تشرين الثانى من العام ٢٠١٠، إضافة الى مئات من الصحف المحلية الأميركية، التي اختفت عن الوجود نهائياً. وتشير الأحصاءات الى ان عدد الوظائف فى الصحافة الورقية الأميركية قد تقلص

بحوالي ٣٠% منذ عام ٢٠٠٨ ومن المتوقع ان تستمر هذه العملية بوتائر أسرع في المستقبل المنظور.

و لم تقتصر الأزمة على الولايات المتحدة، ففي بريطانيا تم إغلاق صحيفة «ذي لندن بيبر» بعد الإعلان عن إغلاق أكثر من مائة صحيفة محلية لفشلها في التكيف مع ظروف المنافسة الحادة مع الإعلام الإلكتروني. ويبدو ان صحيفة "الغارديان" اليومية، واسعة الأنتشار على وشك إيقاف القطاع المطبوع من الصحيفة و ملحقها الأسبوعي "الأوبزيرفر" نظرا لتكبد هذا القطاع خسارة تقدر بحوالي (٤٤) مليون دولار سنويا .

وقد رضخت ثلاث صحف تقليدية كبرى في لندن الى أن تعتمد مقاسات أصغر لصحفتها، تنافسا مع باقي الصحف الأخرى التي اعتمدت مقياس أقرب إلى مقياس صحف التابلويد النصفية، كما اضطرت هذه الصحف إلى أن تعيد النظر في تبويباتها الصحافية لتواكب احتياجات سوق الجمهور من القراءة.

و في فرنسا توقفت جريدة "فرانس سوار" عن الصدور منذ شهر نوفمبر ٢٠١١، واكتفت بنسخة على الويب، وكانت الى عهد قريب مؤسسة إعلامية مرموقة، عمل فيها مجموعة كبيرة من الإعلاميين على مستوى العالم.

وفي اسرائيل توقفت صحيفة "معاريف" عن توزيع طبعتها الورقية في الثالث من ايلول العام الماضي مع استمرار نسختها الألكترونية على شبكة الأنترنت.

و أزمة الطباعة و النشر شاملة و لا تقتصر على نوع محدد من المطبوعات الدورية فقد اضطرت أشهر موسوعة عالمية وهي "الموسوعة البريطانية" الى التوقف عن نشر نسختها المطبوعة و الأقتصار على نسختها الألكترونية. كما تراجعت أرقام مبيعات الكتب الورقية، في حين أن الكتب الألكترونية تلقى رواجاً كبيراً وهذا يدل على التحول السريع والواسع من النشر الورقي الى النشر الألكتروني.

وقد اتخذ هذا التحول اشكالا عديدة فهناك صحف الكترونية تعد نسخة كاملة موازية لطبعاتها الورقية و أخرى يقتصر النشر الألكتروني فيها على أجزاء مختارة من

المحتوى. ولكن معظم الصحف الإلكترونية ليس لها نسخ ورقية رديفة ويقتصر على النشر الإلكتروني وحسب.

ويرى الملياردير روبرت موردوك، الذي يملك أكبر إمبراطورية إعلامية في العالم - ان صح التعبير - أن كثيرا من الصحف الحالية في المملكة المتحدة ستتلاشى في القريب العاجل، ولن يتحمل سوق الصحف أكثر من صحيفة واحدة في كل سوق صحافية. وقد بينت الأحصائيات والأستبيانات الأخيرة صحة ما ذهب اليه موردوك.

و على النقيض من الدول الغربية، فأن الصحافة الورقية في البلدان النامية تشهد طفرة حقيقية ففي أفريقيا، ارتفع توزيعها بنسبة ١٤.٢٪، وفي أمريكا الجنوبية وآسيا لأكثر من ١٦٪. خلال السنوات الثلاث الأخيرة.

ويرجع السبب في ذلك الى محدودية أنتشار الأترنيت فيها، و يتوقع ان يتوقف هذا الأزدهار ويتراجع عندما يتم أستخدام الأترنيت على نطاق واسع في العالم النامي. و يبلغ عدد قراء الصحف الورقية في العالم حالياً نحو ١,٧ مليار شخص. ولكن في مقابل هؤلاء فإن هناك حوالي ٢.٥ مليار من البشر يتعاملون مع الإنترنت وصحافته الإلكترونية، التي تكتسب مزيدا من الجمهور القاريء بمضي الزمن. ان هذه الأزمة تطرح قضية في غاية الأهمية وهي مدى قدرة الصحافة الورقية على التكيف والتعايش مع التطورات المتسارعة في ثورة الأتصالات و المعلومات وأنعكاسات الأخيرة على ممارسات العمل الصحفي.

٢ - عادات القراءة الجديدة:

يعتقد البعض ان ما يحدث للصحافة الورقية من تراجع وأخسار، ليس بمعزل عن الأزمة المالية العالمية الحالية، التي قد تكون مؤقتة وعابرة، ولكن التحدى الحقيقي المتواصل، الذى تواجهه الصحافة المطبوعة في العصر الرقمي، هو التغييرات الجذرية في عادات القراءة وأذواق الأجيال الجديدة، التي تتوجه بقوة صوب الصحافة الإلكترونية، حيث ان الكثير من القراء، الذين كانوا يواظبون على قراءة صحفهم المفضلة مع قهوة

الصباح، تحولوا الى استخدام شبكة الأنترنت لمتابعة الأخبار اليومية و معرفة أحدث المعلومات من مصادر متعددة، وخاصة في مواقع التواصل الأتماعى والمننديات. الجيل الجديد فى عالم اليوم يريد الحصول على الأخبار بسرعة، كما يأكل فى مطاعم "الفاست فود". وهذا التحول فى عادات القراءة تشكل جوهر الأزمة التى تعانى منها الصحافة الورقية فى العالم .

ان تصفح الصحف الألكترونية أقل تكلفة، والوصول إليها أسهل بكثير من الصحف الورقية. بإمكانك أن تتصفح ما تشاء من صحف العالم سواء كنت فى بيتك تحتسى قهوة الصباح أو فى مكان عملك أو أى مكان آخر تتوفر فيه خدمة الأنترنت. معظم المتصفحين من الفئة الشبابية، لا يهتمون كثيراً بالمقالات الجادة والتقارير المطولة ولا بتفاصيل الأخبار، بل يلقون نظرة عابرة على العناوين فى الصفحة الأولى. وهذه حقيقة ادركها فتى انجليزى فى السابعة عشرة من العمر يدعى "نك دي اليوزي"، الذى وضع برنامجاً لتلخيص الأخبار وتحول الى مليونير فى فترة وجيزة. التطبيق الجديد يقوم بتحليل الخبر ومن ثم تحويله الى نص مكون من ٤٠٠ حرف، بحيث يحصل المستخدم على الخلاصة المفيدة من الخبر. وحسب قناة "بي بي سي" يشير "نك" إلى أنه وجد، أن قراءة التقارير الإخبارية المطولة على شاشة الهاتف الذكي الصغيرة أمر غير مريح، من هنا قام ببرمجة هذا التطبيق.

٣ - صحافة تفاعلية جديدة

كتب احد أبرز المدافعين عن الصحافة الورقية فى العالم العربي وهو الصحفي المعروف الأستاذ عبد الرحمان الراشد مقالاً فى جريدة الشرق الأوسط يقول فيها:

" هل سيصبح مصير الصحف الورقية مثل مصير الحمير والبغال والخيول فى زمن ظهور السيارة؟ هل فعلاً حان موعد تفكيك المؤسسات الصحافية والانتقال إلى الوسيلة الجديدة، المواقع الإلكترونية؟ رغم احتفاء الزميلات من المواقع الإلكترونية بأنباء وفيات الصحف المنتشرة فى أنحاء العالم، كما لو أن وباء قد أصابها، فإنها

قراءة خاطئة في نظري، وستثبت الأيام أن الصحف الورقية باقية لكن بلا ورق. وهنا يقع خلط، وربما تدليس متعمد، بإضافة كلمة الورقية إلى الصحف. فالصحيفة شكلاً وورقية لكنها في واقع الأمر محتوى، أي الأخبار والآراء، أي المنتج المكتوب سواء كان على ورق أو جدران، كما كان يفعل الصينيون في الماضي، حيث تعلق ورقة على لوح في الحي ليصطف الناس في طابور لقراءتها بسبب نقص الورق وكثافة السكان، أو مثل الصحيفة اليوم من خلال الصفحات الإلكترونية. (لن تموت الصحافة. عبدالرحمن الراشد، جريدة الشرق الأوسط، العدد ١١٥٠٩ الصادر في ٢ يونيو ٢٠١٠)

هذا الرأي - رغم احترامنا للكاتب - غير صحيح، لأن الصحافة الإلكترونية تختلف عن الورقية ليس فقط من حيث الوسيلة المستخدمة لتقديم المادة الصحفية أو للقراءة، بل من حيث المحتوى أيضاً ، فالصحافة الإلكترونية لا تقتصر على المنتج المكتوب، بل قدمت أنواع جديدة من طرق عرض الخبر مثل الفيديوهات، التي تنقل القارئ مباشرة الى موقع الحدث بالصوت والصورة في الوقت الذي تكون فيه الصحيفة الورقية مضطرة لانتظار ٢٤ ساعة لطبع الخبر وقد تكون أحداث أخرى قد جرت بعد ذلك، وبهذا تكون الصحف الورقية قد فقدت اهم عنصر من عناصر النجاح وهو ما يسمى بـ(السبق الصحفي).

ولعل ابلغ دليل على قدرة الصحافة الإلكترونية على نشر الأخبار بشكل فوري وعلى أوسع نطاق الى جميع أنحاء العالم، هو ان الرئيس الأميركي باراك أوباما اختار موقع "تويتر" ليشكر مؤيديه بعد فوزه بولاية ثانية ليكون أول رئيس أمريكي يعلن فوزه في تأريخ سباق رئاسة الولايات المتحدة عبر موقع للتواصل الاجتماعي. وقال أوباما عبر تغريده على موقعه في "تويتر" ، "شكرا لكم.. لقد حدث هذا بسببكم".

لا تستطيع الصحف الورقية مجازة الصحف الإلكترونية كوسيط نقل جديد للمعلومة والإعلان. والتنافس مع مواقع التواصل الاجتماعي على الأنترنت - التي تجتذب مئات الملايين من المتصفحين مثل "التويتر" ، " الفيسبوك " وغيرهما - في سرعة نشر الخبر للقارئ وقت حدوثه و تحديثه لحظة بلحظة، في زمن يتقادم فيه الخبر بسرعة بالغة، واتاحة

المجال للقراء للمشاركة فى تحريرها والتعبير عن آرائهم و مناقشتها مع قراء آخرين بكل حرية على نحو لم يسبق له مثيل.

كل ما تقدمه الصحافة الورقية من محتوى مرة فى اليوم او الأسبوع، تقدمه الصحف الرقمية مجانا و فورا بكل سهولة. ولعل فوز الصحيفة الإلكترونية "هفنجتون بوست" بجائزة بوليتزر للصحافة لعام ٢٠١٢ بعد أن تخطت صحفا عريقة لتتال الجائزة الأهم فى الإعلام الأمريكى، هو اعتراف صريح بالتفوق الرقمي على الورقي التقليدي. و لا يقتصر الاختلاف بين الصحافتين على سرعة النشر والوسيلة المستخدمة لنقل المحتوى كما يظن البعض، فالصحافة الرقمية تقدم خدمات اعلامية كثيرة تعجز عنها الورقية منها الندوات وبرامج المحادثة (الشات) و شريط الأخبار المتحرك، اضافة الى عدم وجود محددات لحجم المواد المنشورة وزمن العرض. وعلى خلاف الصحافة الورقية فإن الصحيفة الإلكترونية بإمكانها تقديم المعلومة الجديدة بالحجم الكامل فى أي وقت. كما تسمح شبكة الأنترنت بتراكم المعلومات وحفظها و أرشفتها. و بدلا من ايراد مقتطفات من المصادر، فإن النشر الإلكتروني يسمح للكاتب بوضع روابط لمصادر ومراجع المادة المنشورة سواء اكانت مقالة او دراسة او حتى كتابا كاملا، و بذلك يقتصد الباحث او الكاتب كثيراً فى حجم البحث أو الدراسة.

وثمة امكانيات فنية اخرى للصحف الإلكترونية منها خدمة الأنتقال الي الأذاعات و القنوات الفضائية، و خدمات (التعليقات، الردود الآنية، أربط بالمواقع الأخرى والأحصائيات الخاصة بالموقع الإلكتروني (عدد القراءات لكل مادة صحفية وتوزيع القراء حسب البلدان و الفئات العمرية والتحصيل العلمي وغيرها من البيانات)، التي تتيح للصحيفة الإلكترونية معرفة مواطن القوة و الضعف فى عملها من اجل التطوير اللاحق.

٤ - مستقبل الصحافة الورقية:

يتبنى خبراء الإعلام رؤية متشائمة لمستقبل الصحف والمجلات المطبوعة. ويرى عملاق الصحافة رويترز مردوك أن الصحافة الورقية سوف تخفني بحلول عام ٢٠٢٠ ويقول مؤلف كتاب "النهاية الحتمية للأعلام الورقي" فيليب ماييرز ان آخر مطبوع ورقي سيصدر في عام ٢٠٤٣.

كما تشير الدراسات الخاصة بمستقبل الصحافة الورقية إلى أن الصحافيين أنفسهم يعتقدون أن أنها ستكون أقل أهمية في الحياة العامة في السنوات القادمة.

ولكننا نعتقد ان تزايد قوة وفاعلية الصحافة الألكترونية، لا يعني بأي حال من الأحوال انقراض الصحافة الورقية المطبوعة في المستقبل المنظور، فما يحدث غالباً أن الوسائط الأكثر الحداثة، لا تؤدي بالضرورة إلى انقراض الوسائل القديمة. فالصحافة الرقمية لا تلغي دور الصحافة الورقية وأنهما يمكن ان يتعايشا مع بعضهما البعض، خاصة وان لكل منهما قارئه الخاص به ومصدره في إستقاء الاخبار. ومن متابعتنا للصحافة الرقمية وجدنا أن الجزء الأكبر من محتواها، سطحي، مما يؤدي الى قمع حب الأستطلاع الذهني لدى الشباب، لأنهم يسبحون على سطح بحر المعلومات من دون نزول الى الأعماق، حيث المعرفة الحقيقية. أما قارئ الصحف الورقية فهو يبحث عن المعلومات المعقدة والتفاصيل الدقيقة وكل ما ينمي تفكيره ويثري ثقافته. لم ينته بعد، زمن الصحف الورقية في العصر الحاضر ولن ينتهي قريباً كما يزعم المتشائمون، ولكن على الصحف تأهيل نفسها للعصر الرقمي و الأطلالة على العالم بنسخ إلكترونيه لها على الأنترنت، لأن المواقع الاللكترونية هي نافذة الصحافة الورقية للقراء. و ثمة مفارقة بالغة الدلالة على حيوية الصحف الورقية وهي ان كثيراً من الصحف التي بدأت بداية إلكترونية فقط، توجهت بعد ذلك إلى الطباعة الورقية، ويبدو ان العلاقة المتبادلة بين الوصيلتين الورقية والرقمية ماضية الى مزيد من التجسير والتكامل رغم المنافسة الشديدة القائمة حالياً بينهما.

وتجربة موقع "ويكيليكس" وهو احد اشهر المواقع الألكترونية العالمية دليل آخر على ان الصحافة الورقية ما زالت مؤثرة جدا، رغم كل ما يقال عن سطوة الأنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي على وجه الخصوص، فالوثائق السرية التي نشرها الموقع المذكور اتسع تأثيره كثيراً، بعد لجؤ صاحب الموقع "جوليان أسانج" إلى كبريات المؤسسات الصحفية في جميع دول العالم لنشر ما بحوزته من وثائق في صحفها المطبوعة بشكل ورقي لاسيما في بريطانيا، وقد احدث هذا النشر ضجة كبرى اهتزت لها الحكومات في شتى انحاء العالم وبخاصة الفاسدة منها. وهذا دليل آخر على أن الصحافة الرقمية لن تكون بديلا عن الصحافة الورقية في المستقبل المنظور على الأقل، وان الوقت ما يزال مبكراً للحديث عن اختفاء الصحف المطبوعة قريبا. الصحافة المطبوعة ما زالت رائجة في الكثير من دول العالم وفي مقدمتها دول العالم النامي. وتبقى مسألة جوهرية في غاية الأهمية لا يمكن تجاهلها أو التقليل من شأنها بأي حال من الأحوال، وهي ان الصحافة الألكترونية تفتقر الى الديمومة التي تتصف بها المطبوعات الورقية. وان معظم مانعرفه عن ماضى البشرية مدون بطرق مختلفة على الأشياء المادية: الأختام الأسطوانية وأوراق البردى والأحجار و الجلود و من ثم الورق و لولا هذا التدوين لضاع تأريخ البشرية و لم يكن بوسع العلماء تفكيك طلائم اللغات القديمة المندثرة. و الأسوأ من ذلك ان التراث الرقمي - ان صح التعبير - يمكن تغييره او تحريفه بسهولة، خلافا للآثار المادية للتأريخ. و ثمة امكانية للوقوف على أي تغيير أو تحوير أو تشويه في الآثار المكتوبة ومنها المطبوعة، أما في النصوص الألكترونية فلا يمكن اكتشاف ذلك أبدا. الصحافة الورقية عصية على الموت، ولا يزال هناك عدد غفير من الناس وبضمنهم أصحاب ألمع العقول البشرية وخيرة المثقفين، الذين تربطهم علاقة عاطفية بالورقة و القلم ولا يمكنهم الأستغناء عن الصحافة المطبوعة و النشر الورقي طيلة حياتهم ، إضافة الى مئات الملايين من القراء الذين لم يكتشفوا بعد العالم الرقمي ولا يتعاملون الا مع الورق.

القسم الثالث
صحافة العصر الرقمي

نحو مفهوم جديد للرسالة الإعلامية

يرى بعض المفكرين و فى مقدمتهم رائد التنظير الإعلامى مارشال مكلوهان (١٩١١ - ١٩٨٠) م أن تأريخ البشرية هو تأريخ اتصال و اعلام بين البشر، و أن التقدم العلمى التكنولوجى هو الذى يسهم فى المقام الأول فى تشكيل و تطور المجتمعات الأنسانية، و أننا من دون فهم الأساليب التى تعمل و سائل الأتصال بمقتضاها، لن نكون قادرين على أدراك التغيرات الأجماعية و الثقافية التى تطرأ على المجتمعات المعاصرة.

و أن الوسائل الجديدة تشكل أمتدادا لأعضاء جسم الإنسان. فعلى سبيل المثال، يعتبر الهاتف النقال أمتدادا لأذاننا و الميكروفون أمتدادا لألسنتنا و التلفزيون أمتدادا لعيوننا، و أجهزة الكمبيوتر توفر الجهد الذهنى و تؤدى الى امتداد الوعى. و يقول مكلوهان فى كتابه الشهير "كيف نفهم وسائل الأتصال" الصادر فى أواسط الستينات من القرن المنصرم أن "ان أهمية الرسالة - فى عمليات الأتصال الإعلامية - تكمن فى وسيلة نقلها"، بمعنى أن طبيعة كل وسيلة و ليس مضمونها هى الأساس فى تشكيل المجتمعات الحديثة.

فالرسالة الأساسية فى التلفزيون هى البث التلفزيونى، كما أن الرسالة الأساسية فى الكتاب هى المطبوع، لذا فأن المضمون - حسب رأيه - غير مهم، بل المهم هو الوسيلة التى تنقل المحتوى، كما أن لكل وسيلة جمهورا من الناس، يفوق جبههم للوسيلة اهتمامهم بمضمونها.

و التلفزيون كوسيلة تستقطب أهتمام جمهور عريض من المشاهدين بفضل الشاشة التى تعرض الصورة و الصوت و الحركة و الألوان فى آن واحد معا . كما يحب الناس القراءة من اجل الأستمتاع بتجربة المطبوع.

و تؤثر وسيلة الأتصال الإعلامية فى المضمون الذى تنقله، و ربما تستطيع الوسيلة أن تشوه المضمون، و هذا ما تفعله مثلا الفضائيات الرسمية فى دول التخلف، عندما

تحول الواقع البائس الى انجازات للقائد الضرورة أو الفضائيات الخزبية، التي تشوه مضمون ما تعرضه و تحرفه على نحو يتطابق مع أيديولوجية الحزب.

لقد تجلت أهمية التلفزيون - عند ظهوره فى أحتواء الراديو .

أما اليوم فأن الشركات الرائدة فى مجال تقنيات الأتصال تسعى الى دمج الخدمات الأعلامية، و تعد شبكة الأتترنت ذروة الأتجازات التكنولوجية لعصرنا الراهن فى مجال الأتصال و الأعلام .

بل ان البعض يعتبرها "وسيلة الوسائل الأتصالية" لأنها تطوى بداخلها الوسائل الأخرى، الى جانب استخداماتها المعروفة فى تبادل الملفات و تصفح قواعد البيانات عبر الشبكة و البريد الألكترونى و أفلام الفيديو و فى الترفيه و الدعاية كما تؤمن التفاعل بين المشتركين فى ما يسمى بخدمة المؤتمرات و غرف المحادثة أى الحوار بين أتجاهين أو أكثر، أى ان شبكة الأتترنت حلت محل الأتصال أو الأعلام الأحادى الجانب، و ثمة اليوم انجازات تكنولوجية جديدة فى طريقها الى الأنتشار لدمج الأتترنت و التلفزيون الرقى أو الأتترنت المتلفز لخدمة عدد أكبر من المستخدمين. و كذلك دمج الهاتف و التلفزيون و الأتترنت و الكومبيوتر الشخصى النقال فى جهاز صغير.

اضافة الى ظهور "الكتاب الألكترونى" و لا نقصد بذلك تحميل الكتب من الأتترنت و حفظه فى الكومبيوتر، بل الخزن الألكترونى لمحتويات الكتب الورقية فى جهاز الكترونى جديد لا تزيد ابعاده عن أبعاد كتاب ورقى خفيف و صغير و يمكن حمله فى الجيب و يتسع لحفظ مئات الكتب و من ثم قراءتها فى أى مكان و زمان (خلال السفر او على الشاطيء او أى مكان آخر. بدلا من حمل الكتب الثقيلة .

و الطريف فى الأمر ان الأتارة فى شاشة هذا الجهاز أشبه بمصباح منضدى مخفى، كما يتميز بتقنية الخبر الإلكترونى (بورل) الذى يشبه الورق فيخفف من حدة إجهاد العين ولا يؤثر سلبا على النوم فى المساء. ويمكن أيضا استخدامه خارجا فى الشمس، وهو أمر مهم بالنسبة إلى القراءات خلال العطل. أى ان القارئ يشعر

و كأنه يقرأ كتابا عاديا، لأن القراءة عن طريق هذا الجهاز، لا يختلف ظاهريا عن قراءة أى كتاب آخر.

و فى ضوء ما تقدم لم يعد تقسيم وسائل الأتصال الى أتصال أو أعلام مطبوع و مسموع و مرئى مقبولا و هو فى طريقه الى الزوال، و لم تعد "صاحبة الجلالة" أو "السلطة الرابعة" تحتل الا جانبا واحدا داخل المنظومة الأعلامية، يختلف حجمها من مجتمع الى آخر.

و اذا كانت الوسائل "القديمة" تسعى الى أضاء الطابع الشخصى على عملية التلقى و تفرض على المتلقى مضامين من طرف واحد فى توقيتات محددة، فأن الوسائل الجديدة تتيح للمتلقى أختيار رسالته الأتصالية - الأعلامية من حيث الشكل و المضمون و وقت الأستقبال.

عملية الأندماج المتواصلة بين الوسائل المختلفة، ليست مسألة تكنولوجية فحسب، بل لها أيضا فاعليتها المؤثرة فى تكوين الأنماط الأتصالية و الثقافية.

المجتمعات المتخلفة التى لا تسهم الا بقدر ضئيل أو لا تسهم على الأطلاق فى التقدم العلمى - التكنولوجى لعصرنا الراهن، تخضع شاءت أم أبى لما ينجم عن هذا التقدم من تغيير فى أنماط الحياة و وثارها المتسارعة و هى لحسن الحظ تغييرات إيجابية عموما، يمكن (لو أحسن استخدامها) أن تسهم فى تطوير و تحديث تلك المجتمعات، و لن يتم ذلك، الا بالأدراك الواعى و الفهم العميق لجوهر التقدم العلمى - التكنولوجى المعاصر.

الأنترنت والتلفزيون، من المنافسة المحمومة الى الإندماج والتكامل

لو ألقينا نظرة على تأريخ وسائل الإعلام، لتبين لنا أن ظهور وسائل إعلامية جديدة لا يعني بالضرورة، إنحسار أو زوال سابقاتها، فعلى سبيل المثال، لم يؤد ظهور التلفزيون الى اختفاء الراديو أو السينما. والتلفزيون لم يختف بظهور الشبكة العنكبوتية (الأنترنت)، والتأثير القوي لوسائل الاتصال الرقمية في عالم اليوم لم يكن على حساب الوسائل التقليدية ويبدو ان الوسائل القديمة والجديدة، يمكن أن تتعايش وتتفاعل معا وان تكمل الواحدة منها الأخرى وتساعدها على إنتشار أوسع.

ولكن الوسائل القديمة - لكي تحافظ على مكائنها - مضطرة الى التكيّف مع التطور السريع للتكنولوجيا الرقمية، فالتلفزيون اليوم لم يعد كما كان بالأمس القريب، وإضطر الى إدخال تغيير جذري في البرامج التي يقدمها، من أجل إجذاب المشاهدين والصمود أمام المنافسة القوية المتنامية للأنترنت.

ولا أحد - بين خبراء الإعلام - يعرف على وجه الدقة نتائج هذه المنافسة المحمومة، التي ستكون من دون شك طويلة وشاقة. أو بتعبير آخر، هل سيتمكن التلفزيون من الصمود أمام الأنترنت و وسائل الإعلام الرقمية الأخرى، التي تتصدر اليوم المشهد الإعلامي وأصبحت تستحوذ على إهتمام الجمهور على نحو متزايد وتقتحم جميع مجالات النشاط البشري وبضمنها المجالات المتنوعة للأعلام والتثقيف والترفيه؟

الأستبيانات التي أجريت مؤخراً في بلدان متباينة التطور والثقافات تشير الى نتائج مختلفة:

ففي الدول النامية، التي ما زال انتشار الأنترنت فيها محدوداً وبضمنها العراق، نرى ان التلفزيون فعال ويحظى بشعبية واسعة، ويعد المصدر الرئيس للأخبار وتغطية الأحداث السياسية والرياضية الساخنة وعرض الأفلام السينمائية والمسلسلات الدرامية والكميدية ونقل وقائع الندوات والمؤتمرات والحفلات وغير ذلك الكثير. أما في الدول الغربية المتقدمة، فأن الصورة مغايرة الى حد كبير، حيث تشير تلك النتائج الى ان شبكة الإنترنت تتفوق على التلفزيون في النقل الفوري للأخبار وتحديثها على مدار الساعة والنشر الفوري للآراء والتعليقات وعرض المضامين المرئية التي ينتجها ويخرجها ملايين من مستخدمي الأنترنت، إضافة الى إجراء المكالمات الهاتفية المجانية لقاء اجور زهيدة وتقديم خدمات كثيرة للمشاهدين وبضمنها برامج المحادثة (الشات) والبريد الإلكتروني، وخدمات أخرى كثيرة ومنوعة.

أزدهار أم تضخم؟

خلال السنوات القليلة الماضية تضاعف عدد القنوات التلفزيونية في العالم حوالي عشر مرات ويتوقع أن يستمر هذا النمو في المستقبل المنظور. وهذا يعني ان قطاع التلفزيون عموماً يشهد ازدهاراً أو بتعبير أدق توسعاً أفضياً. ويدل على زيادة الطلب عليه. فعدد المشاهدين للأحداث السياسية والرياضية الساخنة هائل للغاية وقد تصل الى عشرات وربما الى مئات الملايين من البشر.

وكما قلنا آنفاً فأن التلفزيون أستطاع الأحتفاظ بمكائنه بإعتباره الوسيلة الإعلامية الأكثر شعبية في العالم النامي والصمود أمام المنافسة القوية للأنترنت في الدول المتقدمة ولم يكن هذا الصمود أمراً تلقائياً أو هيناً، فقد اضطر الى إجراء تغيير كبير، سواء في محتوى الرسالة الإعلامية أو في صيغ وأشكال تقديم البرامج المختلفة. ان نشرات الأخبار التي تقدمها القنوات التلفزيونية ما زالت لها جمهور كبير ولكن الفرق هو ان المشاهدين يعرفون اليوم كل ما يجري في عالمنا فور وقوعها عن طريق الأنترنت، و لم تعد نشرات الأخبار في التلفزيون، المصدر الرئيس للأخبار العالمية،

فالأنترنيت أسرع في نقل الأخبار أولاً بأول. وأخذت البرامج الأخبارية للتلفزيون في مجارة الأنترنيت واللجوء الى أساليب أكثر تشويقاً في تقديم الأخبار والتقارير وأشارك المحللين السياسيين - وما أكثرهم هذه الأيام - في التعليق على الأحداث الساخنة ومناقشة تداعياتها المحتملة.

نهاية الرقابة:

سمحت شبكة الأنترنيت بوضع نهاية للرقابة الحكومية على مضامين المواد الإعلامية. ولم يعد بإمكان التلفزيون أن يلزم الصمت او يتجاهل بعض الأخبار والحوادث الحساسة، التي تهم الجمهور، في حين تزخر بها المواقع الألكترونية بشتى لغات العالم.

ظاهرة «الويكيليكس» إنتشرت بسرعة البرق وثمة اليوم منات المواقع التي تقدم بأشكال مختلفة (نصوص، صور، فيديوات) كل ما يحدث وراء كواليس السياسة والمال. ولا يمكن للتلفزيون بعد اليوم ان يتغاضى عن نقلها، والشيء المدهش في شبكة الأنترنيت هو قدرتها على تخطي الحدود على نحو جعل كل محاولات الرقابة الحكومية بلا معنى، ولكن هذا لا يعني ان الرقابة انتهت تماماً، وثمة أنظمة شمولية تحاول حجب الشبكة كلياً أو جزئياً (مواقع الكترونية معينة) ولكنها لن تنجح في مسعاها لسببين:

أولهما ان ذلك يعد خرقاً فاضحاً لحرية التعبير ويلقى الأستهجان من المجتمع الدولي - وهذا ما شاهدناه خلال ثورة ٢٥ شباط / فبراير ٢٠١١ في مصر حين حاول نظام مبارك قطع شبكة الأنترنيت لبضعة أيام وأضطر تحت ضغط المجتمع الدولي الى اعادتها. وثانيهما أن الشبكة نفسها لديها الوسائل الكفيلة بتخطي الحواجز والوصول الى أية نقطة في العالم.

ان شبكة الأنترنيت هي الوسيلة الإعلامية الفائقة - لأنها مزيج من ثلاث وسائل إعلامية (مقروءة، مسموعة، مرئية) - التي أضحت اليوم تؤثر في الممارسات

الإعلامية والسلوك البشري، حيث لم تعد ثمة اية حدود بين العام والخاص. وسارع التلفزيون الى ركوب الموجة وأزاحة الموانع والقيود الاجتماعية جانباً وكل شيء أخذ يتحول الى الترفيه. وهذا تغيير جدي للغاية.

شبكة الأنترنت أزلت أيضاً الفواصل التي كانت قائمة بين الإعلاميين وبين القراء والمستمعين والمشاهدين. وبفضل الأنترنت اصبح المتلقي مساهماً في المضمون الإعلامي. ويقول الإعلاميون في الغرب (من محررين ومصورين)، بأن تخصصاتهم تتلاشى وينتقل دورهم الى الناس العاديين.

ولا يقتصر الأمر على شبكة الأنترنت، بل أن كل من يظهر على شاشة التلفزيون يغدو مهنياً ولم نشاهد من قبل قط هذا العدد الكبير من المحللين السياسيين والخبراء في شتى مجالات الحياة، الذين يتكاثرون كالفطر بعد المطر.

أندماج وتكامل

يمكنك اليوم مشاهدة البرامج التلفزيونية من دون التلفزيون، تستطيع تشغيل جهاز الكمبيوتر ومشاهدة البرامج التلفزيونية المفضلة لديك في الوقت المناسب لك. ومن اي مكان تشاء، من خلال تقنيات البحث والتصفية المتوفرة في الشبكة، مما يدل على ان التلفزيون، لا يزال قوي التأثير لدرجة انه، حتى أولئك الذين لا يحبون الجلوس أمام التلفزيون، يشاهدون البرامج التلفزيونية على شبكة الإنترنت وعلى الهواتف الذكية.

ولكن التلفزيون اضطر الى إجراء تغيير كبير في المحتوى الإعلامي الذي يوجد فيه الآن ايقاع اكثر وصلات مع مواقع التواصل الاجتماعي، حيث يمكن مثلاً مشاهدة جميع برامج التلفزيون على التويت. وتحميل الأفلام السينمائية ومشاهدتها حتى بعد أنتهاء عرضها في دور السينما أو على شاشات التلفزيون. والحقيقة هي أن شبكة الإنترنت أعطت دفعة قوية للتلفزيون، وبعثت فيه دماء جديدة.

كيف سيكون تلفزيون الغد؟

تعمل عدد من شركات تكنولوجيا المعلومات في السنوات الأخيرة على التوصل الى تقنية جديدة تسمح بالتزاوج بين التلفزيون والإنترنت وبضمنها شركة (غوغل) التي قامت بطرح تقنية جديدة إسمها «Google TV» قد تكون الأنجح من بين ما تم التوصل اليه حتى الآن. ومن المتوقع ان تطلق الشركة ابتكارها الجديد قبل نهاية السنة الحالية على شكل علبة صغيرة توصل جهاز التلفزيون بالإنترنت ومستقبلا سيتم انتاج تلفزيونات تتضمن هذه التقنية وذلك في اطار تعاون ثلاثي بين شركات (Sony, Intel Logitech) نستخلص من ذلك كله ان ليس ثمة تعارض بين الإنترنت والتلفزيون، بل تفاعل وتكامل وربما سيندمجان في النهاية.

مسرات العصر الرقمي

يتطلع الإنسان دائما الى تغيير حياته وجعلها اكثر بهجة و سرورا والقيام بأدوار يحلم بها والعباب الكومبيوتر الشائعة اليوم على نطاق واسع، تتيح له امكانية فريدة لتحقيق ذلك والأحساس بأنه بطل خارق وان كان فى عالم تخيلى بعيد عن الواقع الماش. يقول الباحث الهولندى يوهان هويزينغا (johan huizinga) فى كتابه الممتع (الإنسان- اللاعب) الذى صدر فى عام (١٩٣٨): (ليس اللعب حاجة مباشرة للإنسان، بل شىء اضافى يثرى الحياة ويضفى عليها حيوية وجمالا، وهو بهذا الرورى. اما الكاتب الفرنسى روجيه كايوا، فقد حدد فى كتابه الموسوم (الناس واللعب) الخصائص الأساسية للعب والتي لا يمكن فصلها عن بعضها لكونها خصائص مترابطة، وفى مقدمتها (حرية الاختيار- التمايز عن الواقع المعاش - رفض المعايير التقليدية - غياب المنفعة المادية - عدم امكانية التكهن بالنتائج مسبقا) ومن وجهة النظر هذه فإن اللعب يؤدى وظيفة ثقافية مهمة.

كلا النتاجين صدرا قبل عصر الكومبيوتر، ولكنهما يعكسان بدقة خصائص العباب الكومبيوتر ايضا فى يومنا الراهن.

ثمة اعتقاد سائد بأن الأطفال والمراهقين هم الذين تستهويهم هذه الألعاب، ولكن نتائج البحوث التى نشرتها جمعية Interactive Digital Software (IDSA) (Association) تثبت ان معظم هواة العباب الكومبيوتر، هم من البالغين والكبار وان نسبة النساء بينهم تبلغ حوالى (٤٠%).

وقد اصبح الأنتشار الواسع لهذه الألعاب مشار نقد مرير فى الصحافة الغربية، لما تحويه من لقطات ومشاهد لا تتفق والمعايير الأخلاقية للمجتمعات الحديثة. ولكن هذا التناقض مع المعايير التقليدية موجود فى اساس السلوك (اللعبى) للإنسان - ان صح

التعبير - ذلك لأن للألعاب قواعد خاصة بها، قد تكون غير مقبولة خارجها واللاعب هنا يتقصد دورا معيناً لفترة زمنية محدودة وبأنتهاء اللعبة ينتهي كل شيء .
أما الزعم بأن ألعاب الكمبيوتر تقتل لدى الأطفال الرغبة في الدراسة، فإن هذه الألعاب - إذا تم اختيارها على نحو صائب - تنمي قدرات الأطفال الذهنية، شريطة ممارستها لفترة معينة، لكي لا تتحول إلى إدمان يصعب معالجته.
إن مجالات اللعب في الحياة أوسع بكثير من ألعاب الكمبيوتر، بل إن نظرية اللعب فرع مهم من فروع الرياضيات المتقدمة، وهي تلعب اليوم دوراً خطيراً في حياة البشر. ومنذ صدور كتاب (نظرية اللعب) لجون نيومان و أوسكار مورغينستين في عام (1944) والذي كرس لتحليل المواقف التنافسية والتكهن بالمواقف المحتملة للأخيرة واختياراتهم، من أجل تمكين اللاعب من اختيار البديل الأفضل (بالنسبة إليه)، نقول منذ ذلك الوقت تطورت هذه النظرية بوتائر متسارعة وانتشرت تطبيقاتها العملية في شتى مجالات النشاط الإنساني (الأقتصاد - السياسة - العلوم العسكرية - بحوث العمليات - البيولوجيا - القانون - التجارة - الرياضة .
وتعد ألعاب الكمبيوتر تسلية بريئة وأحدى مسرات العصر الرقمي، بالمقارنة مع التطبيقات العملية لنظرية اللعب التي تحدد إلى حد كبير مسارات التفكير الاستراتيجي في العديد من القضايا ذات العلاقة بمحاضر ومستقبل الإنسان على كوكبنا.

سوبرمان العصر الرقمي

دشن الأسترالي جوليان أسانج (Julian Assange) صاحب الموقع الإلكتروني (WikiLeaks) ظهور سوبرمان (Superman) من نوع جديد في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، حيث أتبع لأول مرة في التأريخ البشري لأنسان عادي - لا يتمتع بأى صفات جسدية او روحية خارقة او سحر شخصية كاريزمية و ليس له اى سلطة او نفوذ سياسى او مالى او اجتماعى - ان يهز المؤسسات السياسية والعسكرية لعدة دول بينها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا و أفغانستان و العراق و ذلك عن طريق نشر مئات الألوف من الوثائق البالغة السرية دفعة واحدة و الأحتفاظ بالنسخ الأصلية فى أماكن سرية مجهولة و حصينة لا تطالها أيدي السلطات. وفى جعبة أسانج وثائق كثيرة أخرى وعد بنشرها تتعلق بدول كبرى مثل فرنسا و روسيا و ربما بدول أخرى ينام حكامها اليوم فى أمان و أطمئنان ليصبحوا غدا على قنابل الفضاخ التى يفجرها هذا الشاب النحيل فى وجوههم فيسلبهم راحة البال و يرغمهم على مراجعة السياسات التى يتبعونها و التحقيق فى قضايا انتهاكات حقوق الأنسان و الأعتراف بأخطائهم و خطاياهم علنا. انه الأنسان العادى، سوبرمان مناقض تماما لسوبرمان الفيلسوف الألماني نيتشه أى الأنسان الخارق فى قدراته الجسدية و الذهنية، أنه سوبرمان العصر الرقمي الذى خلقته التكنولوجيا المتطورة و يستمد أهميته و تأثيره الهائل من الوسيلة التى يستخدمها.

البيت الأبيض و الخارجية الأمريكية أدانا نشر الوثائق الفضاخية لأنه قد يعرض حياة العسكريين الأميركيين و عملائهم المحليين فى أفغانستان و العراق الى الخطر. و البنتاغون ناشد أسانج بأعادة و ثائق الجيش الأمريكى (المتسربة) و الكف عن نشر ما تبقى من مثل هذه الوثائق لديه. علما ان اسانج حذف الأسماء من الوثائق المنشورة و لكن الصور و أشرطة الفيديو توضح بجلاء من هم المتورطون فى جرائمه يرقى بعضها الى جرائم حرب.

ظاهرة اسانج تشير الى ان بوسع اى انسان فى اى ركن من اركان قريتنا العالمية - ان يستعين بالتكنولوجيا المتطورة و فى مقدمتها وسائل الأتصال الرقمية لأبصال صوته الأحتجاجى الى

العالم بأسره متى شاء. هذا الصوت المدوى بات قوة للضعفاء و المضطهدين و المظلومين افرادا و شعوبا فى عالم اليوم .

لقد أتاحت و سائل معقدة للغاية و لكنها بسيطة الأستعمال مثل الأنترنيت امكانيات واسعة لملايين الأفراد فى انحاء العالم فى الحصول على المعلومات و تبادلها و إقامة صلات بين اناس من جميع أنحاء العالم من اجل تحقيق أهداف محددة مثل الأحتجاج على التلوث البيئى أو النظام الدولى الجديد.

ان التكنولوجيا الألكترونية سلاح ذو حدين و يمكن أستخدامها لأهداف سلمية او عسكرية . و تقول صحيفة (لوموند) الفرنسية فى احد اعدادها الأخيرة، ان برنامج (Sky Grabber)، يباع فى الأنترنيت لقاء ٢٥,٩٥ دولار فقط و لكنه برنامج مهم و قد أتاح للمتمردين الأفغان و العراقيين السيطرة على طائرات أميركية بلا طيار كانت تحاول قصف مواقعهم بهدف القضاء عليهم. كما ان القوى المتطرفة تستخدم وسائل الأعلام و الأتصالات الحديثة مثل الفضائيات و الأنترنيت لبث سموم الكراهية و الخرافات و الدجل و التمييز الدينى و الطائفى و العرقى و معاداة كل ما هو جميل فى الحياة. اما عصابات الجريمة المنظمة و تجارة المخدرات فأنها وجدت فى هذه الوسائل ضالتها للتواصل و التنسيق السريع فيما بينها لأهداف شريرة.

و بفضل استخدام التكنولوجيا الجديدة فأن بوسع أى انسان أن يلحق الأذى بقوى عظمى او يشل حركة الطيران و التجارة الألكترونية و مجالات أخرى كثيرة تستخدم الأنترنيت و تكنولوجيا المعلومات فى أعمالها .

قبل عشرين عاما كان التهديد الوحيد للأمن القومى الأمريكى و الدول الغربية عموما، هو الأتحاد السوفييتى، ولكن العدو اليوم ربما يعيش فى بيت مجاور أو حتى داخل العمارة نفسها و لكن فى طابق أعلى.

قوة الضعفاء

فى مقال نشرته قبل حوالى عشر سنوات فى مجلة (كولان العربى) التى كانت تصدر فى أبريل، قلت فيه حرفيا ما يلى "يعتقد المناهضون لنمط العولمة الحالى، إن الفعاليات الجماهيرية (التظاهرات والمسيرات الحاشدة والمطالبات المستمرة والملحة) يمكنها إجبار الخوصم على التراجع. ويلجأ المناهضون للعولمة الى تنظيم مظاهرات احتجاجية صاحبة (بمشاركة مئات الألوف من الشبيبة من شتى انحاء العالم)، فى اى مكان يعقد فيه اجتماع القمة لدول الأتحاد الأوروبى او الدول الصناعية المتقدمة. ويحدث احيانا ان تخرج مظاهرات احتجاجية كبرى فى عدة عواصم فى ان واحد..... وما يثير الدهشة حقا، المستوى التنظيمى الرفيع لمناهضى العولمة: عشرات الألوف من الشباب من شتى بقاع العالم يتحركون نحو نقطة محددة وكأن عصا" سحرية تحركهم وتوجههم، حيث أن تظاهراتهم تتسم بحسن التنسيق والتنظيم وربما يكمن السر فى ذلك، أن مناهضى العولمة يستخدمون - وباللمفارقة - أحد أهم انجازات العولمة ونعني بذلك الشبكة الدولية للمعلومات (الأنترنت) فى إتصالاتهم."

كتبت هذه الكلمات فى وقت لم تكن خدمة (الأنترنت) قد أنتشرت على نطاق واسع فى الدول العربية، بل كانت تقتصر على جمهور محدود للغاية. ولكن استخدام (الأنترنت) أخذ ينمو و ينتشر بوتائر متسارعة ليس فى الدول المتقدمة فقط، بل فى الدول النامية أيضا. وقد رأينا كيف ان شبكة (الأنترنت) لعبت دورا رئيسيا فى الأنتفاضات الشعبية فى العديد من بلدان العالم مثل مولدافيا و أوكرانيا و جورجيا و إيران و تونس و مصر و ليبيا.

و لكن أليس من المبالغة القول بأن شبكة الأنترنت وراء هذه الثورات؟ و اذا كان الأمر كذلك، كيف نفسر بقاء احتجاجات المعارضة فى دول كثيرة (تستخدم الشبكة

العنكبوتية على نطاق أوسع بكثير من العالم العربي مثل روسيا والصين) محصورة داخل الشبكة العنكبوتية و لا تنعكس خارج الشبكة على الرأى العام أو الشارع؟
عندما لجأ الشهيد محمد البوعزيزى الى حرق نفسه ، سرعان ما انتشر هذا الخبر بين مستخدمي الأنترنت فى تونس. عن طريق مواقع التواصل الأتماعى و كان له وقع الصدمة على جيل الشباب. ثم تحولت الصدمة الى غضب عارم و دعوة للأحتجاج فى الشارع. و لم تمض سوى ساعات قليلة حتى غصت الشوارع بعشرات الألوف من المحتجين الذين أنضمت اليهم جموع غفيرة من التوانسة من مختلف الشرائح الأتماعية و الأعمار.

و كان لمواقع التواصل الأتماعى (فيسبوك و تويتر و يوتيوب) دورا بالغ الأهمية فى ثورة ٢٥ يناير فى مصر ضد النظام البوليسى. و لم تدرك السلطات المصرية لمدة طويلة أبعاد هذا الدور الجديد العظيم لتكنولوجيا المعلومات حتى ان جمال مبارك سخر من احد الشبان المصريين فى اجتماع عام، عندما سأله الشاب عن رأيه فى موقع الفيسبوك و مواقع التواصل الأتماعى الأخرى، و لم يكلف جمال نفسه عناء الرد، بل غرق فى ضحكة طويلة، ثم طلب من أحد أصدقائه الرد على السؤال. و لم يكتشف نظام مبارك أهمية الأنترنت عموما و مواقع التواصل الأتماعى خصوصا فى تبادل و توحيد الآراء و حشد الجماهير للتصدى لنظامه البوليسى الفاسد الا فى ذروة ثورة ٢٥ يناير التى أجتاحت مصر من أقصاها الى أقصاها، فقطع خدمة الأنترنت لعدة أيام و لكنه أضطر الى اعادتها تحت الضغط الأمريكى ، حيث نددت هيلارى كلينتون بقطع خدمة الأنترنت و طالبت بأعادتها على الفور .

ثمة من يطلق على الثورات الشعبية العارمة فى البلدان العربية اسم (ثورة الفيسبوك) و (ثورة التويتو) نظرا للدور المشهود لهذين الموقعين الألكترونيين فى تسهيل التواصل و التنسيق بين زوارهما، و يقول البعض أنه لولا الأنترنت لما حصلت تلك الثورات!! و هذا قول مبالغ فيه كثيرا، و الحقيقة أن الأنترنت أداة فعالة فى تحريك الجماهير الغاضبة و لجوء الأنظمة الشمولية فى إيران و تونس و مصر الى

قطع الأنترنت تؤكد الدور الفعال لهذه الأداة الشورية حقا و لكن ليس بالأنترنت الشورى وحده تندلع الشورات.ان الظروف و العوامل الموضوعية لاندلاع الاحتجاجات الشعبية فى تونس و مصر بالأمس و فى اليمن و ليبيا و البحرين و عمان و غيرها من الدول العربية اليوم قد نشأت و نضجت قبل الأستخدام الواسع للأنترنت و ظهور مواقع التواصل الأتماعى.و نعتقد ان حشد مئات الألوف من المحتجين فى الشارع يتطلب نضوج البيئة الأحتجاجية وان تكنولوجيا المعلومات و حدها لا تكفى لأزاحة الطغاة عن السلطة و أسقاط الأنظمة الشمولية، و لن تكون هذه التكنولوجيا من دون البيئة الحاضنة للأحتجاجات، سوى منفذا للتعبير عن الرأى و التنفيس عن الهموم. وعندما يتعمق و ينضج الأستياء الشعبى و يصل سخط الناس على النظام القائم الى درجة الغليان (بسبب قيام السلطة بتزوير الأنتخابات و أنتهاك حقوق الأتسان و فرض قيود على الحريات و أستشراء الفساد السياسى و الأدارى و المالى و تفاقم مشاكل الفقر و البطالة و البيروقراطية و تردى الخدمات العامة)، تتحول شبكة الأنترنت الى أداة ثورية فعالة للتنظيم عبر تبادل و تقريب الآراء و حشد التأييد لفكرة الأحتجاج العلنى و كسر حاجز الخوف و تحديد مواعيد التحرك الجماهيرى و مكانه، أقول عند ذلك فقط تتحول شبكة الأنترنت الى قوة تنظيمية تمارس تأثيرا سياسيا هائلا تعصف بالأنظمة الشمولية الفاسدة. منذ أكثر من ألف عام و الشعوب العربية تنن تحت سياط حكام جائرين أذاقوا شعوبهم الذل و الهوان و سرقوا لقمة الخبز من الجياع. و لكن الزمن تغير و نحن نعيش اليوم عصرا جديدا، اصبحت فيه (المعلومة) متاحة للجميع بعد أن احتكرها الحكام الطغاة طويلا، و نشأ لأول مرة فى التاريخ البشرى مجتمع أنسانى يتقاسم فيه البشر السراء و الضراء الى حد كبير و لم يعد بوسع حاكم جائر ان يججب الحقيقة، فشمس الحرية و الديمقراطية تسطع فى كل مكان من عالمنا (الصغير) و لم يعد بوسع طاغية، مهما أمتلك من أدوات البطش و القمع و وسائل التضليل و الخداع أن يخفى جرائمه بحق شعبه عن العالم الخارجى أو ان يستمر فى الحكم. و بفضل التكنولوجيا الشورية الجديدة أمتلك المضطهدون و المسحوقون قوة خارقة. أنها (قوة الضعفاء) التى لا تقهر.

السلطة الخامسة

المدونات والمنتديات وشبكات التواصل الاجتماعي منابر حرة للتعبير عن الرأي والتواصل مع الآخرين لكل من يتعامل مع الكمبيوتر ولديه اتصال بالإنترنت، وسيلة للنقل الفوري لأخبار الحوادث من مواقعها مباشرة بجميع الوسائل التعبيرية المتاحة على الإنترنت (نص، صور، مقاطع صوتية، مقاطع فيديو)، واحيانا يسبق المدون او المواطن الصحفي وسائل الاعلام التقليدية في نقل الأخبار. والتدوين وسيلة اعلامية جديدة غير تقليدية لا تخضع للرقابة ولا تعرف الخطوط الحمراء أو التابوهات، سوى الرقابة الذاتية التي يضعها المدون بنفسه لنفسه.

اذن، اين هو الحد الفاصل بين المدونين الهواة ونشطاء الأنترنت وبين أولئك الذين جعلوا نقل الأخبار مهنة لهم أي الصحفيين؟. وهل هذا الحد موجود فعلاً؟.

لقد جرت ازاحة الصحافة التقليدية عن عرشها بخطوات تدريجية ولكن متسارعة ومتواصلة . قبل حوالي عشر سنوات كان الأنترنت لعبة غالية الثمن للميسورين ولم يكن أحد يتصور بأنها ستكون منافسة جادة للصحافة الورقية والراديو والتلفزيون، ولكن كلما تطورت تكنولوجيا الأنترنت، اصبح الدخول الى الشبكة اسهل واسرع وأرخص وجرى الاعتماد اكثر على مصدر عالمي جديد للمعلومات لا يحده حدود او رقابة، ودخلت الصحف والمجلات وقنوات التلفزيون والاذاعة الى الشبكة بتأسيس مواقع الكترونية لها. ولكن ظهور مساحات مفتوحة للتعبير عن الرأي في المدونات و المنتديات المستقلة ومواقع التواصل الاجتماعي، اخذت تنتزع شيئاً فشيئاً من وسائل الاعلام التقليدية قسما من الجمهور. وجاء مشروع (web 2.0) ليسدد ضربة أخرى لوسائل الاعلام التقليدية وأخذ يحتل قمة احصاءات المشاهدة على الشبكة العنكبوتية. وهذا المشروع يتكون من مجموعة من التقنيات والتطبيقات الشبكية الجديدة، التي أدت إلى تغيير سلوك الشبكة العالمية وذلك بالسماح للمستخدم بامتلاك قاعدة بيانات خاصة به على الموقع بالإضافة إلى قدرته على التحكم بها

وتزويده بأنظمة تفاعلية تسمح بمشاركته في تفاعل اجتماعي واسع النطاق مع المدونين والمتصفحين الآخرين، وميزات أخرى عديدة لا نرى حاجة للخوض فيها.

يظهر هذه التقنيات اهتزت الصحافة التقليدية، وكأنها أنتقلت الى المرتبة الثانية. وهي تحاول اليوم التعويض عن خسائرها بأستمالة الجمهور بوسائل شتى، مما حدا بكثير من منظري الأعلام والعاملين فيه طوال السنوات العشر الماضية، الى التنبؤ بأنتهاء عصر الصحافة الورقية وموتها التدريجي خلال العقود القريبة القادمة وبزوغ فجر الوسائط المتعددة.

ولكننا لا نعتقد بأن هذه التنبؤات سوف تتحقق بمخافيرها، لأن الصحافة التقليدية عvisية على الموت وأخذت تتكيف مع الواقع الجديد المفروض عليها بوسائل شتى، منها الأنتقال الى الشبكة العنكبوتية كلياً او اصدار نسخ الكترونية بموازاة نسخها الورقية أو التحول الى صحافة مجانية تعتمد على الأعلانات في ديمومتها او التحول الى صحافة التابلويد، التي ما زالت تلقى هوى ورواجاً لدى القراء.

وإذا كانت الصحافة التقليدية فقدت بعض مواقعها، فهل هذا يعني ان التدوين سيحل محلها وهل يستطيع المدون ان يحل محل الصحفي المهني؟. وما الفرق الرئيسي بين التدوين والصحافة؟

التدوين هوأية لمعظم المدونين ومهنة لعدد جد قليل منهم لحد الآن. المدون لا يحتاج الى دراسة الصحافة كما هو الحال بالنسبة الى الصحفي المحترف. اي شخص يمكن ان يكون مدوناً. بصرف النظر عن امتلاكه الحد الأدنى من موهبة الكتابة والقدرة على التعبير السليم الطلق عن آرائه. كل ما يحتاجه هوالاشترك في احد المواقع التي تتيح المجال للمدوين بالكتابة والبداً بكتابة شيء ما بين أونة وأخرى، لأن المدونة ليست سجل مذكرات او يوميات عادية بل نشرات الكترونية غير دورية، والأمر المهم هنا هو ان يكون ما يكتبه المدون متاحاً لمتصفحين آخرين. ولا يمكن أعتبار من يكتب لنفسه فقط مدوناً.

المدونة شكل اعلامي غير تقليدي والمدون من الناحية العملية حر في ما ينشره ولا يمكن التحكم فيه أو توجيهه أو فرض أي قيود عليه (ما عدا مراعاة قوانين بلده)، ولا يلتزم المدون بمجدول زمني معين لأوقات الكتابة فهو يكتب في أي وقت يشاء، ولا احد يفرض عليه شروطا او يقيّم محتوى المدونة. وإذا كانت هناك تعليقات على ما يكتبه فأن له الخيار في نشر أي تعليق أو حجه، أما الصحفي المهني فإنه ملزم بمراعاة المواعيد الدورية لصدور الصحيفة التي يعمل فيها، وتنفيذ التوجيهات الصادرة اليه من رئاسة تحرير الصحيفة.

المدون غير ملزم بالكتابة وفق شكل معين او التفكير بسلامة لغته واناقة اسلوبه، ولا يسأل عن محتوى ومصادقية ما يكتبه. وهو حر في سرد كل ما يحلو له، وحتى فضائح او وقائع لم تثبت صحتها.

المدون يمكن ان يصرف وقتا طويلا في التدوين ولكنه حتى وان تطرق الى موضوع اجتماعي مهم فإنه يفعل ذلك بمحض ارادته، لأن لا احد يدفع له مالا لقاء عمله وهو ينغمس في التدوين لان ثمة هاجس شخصي يدفعه لنشر ما يهمه ويشغل باله من اجل اطلاع الآخرين عليه ومحس بالمتعة من وراء ذلك.

اما الصحفي فأن عليه ان يثبت قدراته المهنية وان يكون لديه تحصيل دراسي في الصحافة ومعارف اساسية في المجال الذي يعمل فيه. صحيح اننا نجد في صحافتنا وصحافة البلدان الأخرى، العديد من أبرز الصحفيين، الذين، لم يتلقوا تحصيلا دراسيا في مهنتهم ومع ذلك أصبحوا صحفيين مشهود لهم بالكفاءة والمهنية العالية، ولكن هذه الحالات تظل استثناء من القاعدة. الصحفي الحقيقي حتى لو لم يكن حاصل على شهادة في مهنته فأن لديه في معظم الأحيان شهادة دراسية في تخصص ما وقابلية للكتابة الصحفية بمستوى جيد. ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال ان أي شخص حاصل على شهادة جامعية في تخصص آخر يصلح ان يكون صحفياً. لأن الصحفي ينبغي له ان يمتلك أضافة الى الشهادة، ما اسميه ب(هاجس الصحافة) وعندما يتوفر

عنده هذا الهاجس الدائم فإنه يكتسب مهارات كتابية بالجهد والتعب من خلال تجربته الطويلة في العمل الصحفي.

ولكن اذا كان الشخص بطبيعته ضيق الأفق ومتواضع الثقافة أو لا يستطيع شرح افكاره بيسر ويكتب بوضوح وسلاسة وإيجاز أو غير قادر على التعامل المرن مع الناس من اجل الحصول على المعلومات المطلوبة للمعالجة الصحفية أو لا يبدي اهتماماً بكل ما هو مهم وممتع في هذا الكون، فإنه لن يكون صحفياً ناجحاً.

العمل الصحفي في العصر الرقمي يفرض على الصحفي ليس فقط ان يكون مثقفاً، واسع المعرفة ولكن ينبغي له ان يعرف لغة اجنبية واحدة في الأقل و يتقن التعامل مع الكمبيوتر والانترنت.

الصحفي - بخلاف المدون - ليس حراً في الكتابة عن أي موضوع يخطر بباله أو عن أي قضية يشاء (ربما باستثناء كتاب الأعمدة الصحفية ولكن حتى هؤلاء يلتزمون في العادة بسياسة الصحيفة ولا يحاولون الخروج عنها).

الصحفي يعمل في حقل أو قسم معين أو يكلف بأجراء حوارات أو القيام بتحقيقات صحفية محددة وغير ذلك من أشكال العمل الصحفي وهي كلها تتم بتكليف من رئاسة تحرير الصحيفة التي يعمل فيها والتي تحدد الموضوعات المهمة أو الساخنة، التي ينبغي تغطيتها في العدد الجديد.

ثم ان الصحفي مسؤول عما يكتبه وعن مصداقية المعلومات التي يتضمنها المادة المنشورة. وهو مسؤول ليس فقط امام الوسيلة الاعلامية التي يعمل فيها بل ايضا امام القراء وامام الناس الذين يتحدث عنهم في ما ينشره.

بطبيعة الحال فإن من حق الصحفي ان يكون له رأيه الخاص ولكن ينبغي له ان يكون موضوعياً في كتاباته. ولا يحق له ان يؤكد شيئاً او يتهم احداً جزافاً. كل الاستنتاجات التي يتوصل اليها ينبغي ان تكون مدعومة بالحقائق و الادلة، أي اهمال او عدم جدية في تنفيذ مهامه يكلفه والصحيفة التي يعمل فيها غالباً. والحديث لا يدور عن الاضرار المعنوية فقط بل الاضرار المادية ايضا. حيث ان اي

شخص يعتبر ما نشر عنه مساسا به، يمكن ان يقاضي الصحفي ورئاسة تحرير الصحيفة ويربح الدعوى وتحكم له المحكمة بتعويض مالي كبير.

يتضح مما تقدم، ان الصحفي اقل حرية من المدون. و يبذل جهودا أكبر ولديه التزامات وعليه مسؤوليات اجتماعية واخلاقية، لذا فأن من حق الصحفي أن يستلم راتباً او اجرا لقاء عمله والذي قد لا يتناسب دائماً مع الدور الذي يلعبه في المجتمع.

الصحفي يتعلم مهنته طوال حياته و الصحافة بالنسبة الى الصحفي الحقيقي، أكثر من مهنة ، أنها رسالة.

وصفوة القول ان الصحافة مهنة والتدوين هواية . المدون يمكن ان يتوقف عن الكتابة بمحض ارادته، اما الصحفي فقلما نجد صحفياً متقاعداً لانه يكتب مدى الحياة.

ومن الطريف ان نذكر ملخصاً عن بعض السجلات التي دارت على المدونات ومواقع التواصل الاجتماعي بين المدونين الهواة والصحفيين المهنيين.

يعتقد الصحفي ان المدون يجهل اساسيات مهنة الصحافة وان ما يدونه لا تتوفر فيه شروط المعالجة الصحفية الصحيحة، أما المدون فإنه يعتبر الصحفي موظفاً لدى مالك الصحيفة أو تابعاً لصانع القرار الرأسمالي أو السياسي..، أي ان أحدهما لا يعترف بالآخر، وهذا أمر مؤسف، لأن التعايش بين صحافة المدونات والصحافة الاحترافية المهنية يسمح للجماهير الحصول على معلومات شاملة أكثر اكتمالاً عن الأحداث.

التدوين والصحافة وجهان للأعلام المعاصر واذا حذفنا احدهما لأصبح الأعلام أفقر وأقل حيوية وتفاعلاً الى حد كبير.

قد يكون للصحفي مدونته الخاصة التي ينشر فيها ما لا يستطيع نشره في الصحيفة التي يعمل بها، فقد أستخدم صحفي محضرم مدونته للتفوق على صحيفته. ففي الندوة التي عقدت مؤخرًا في المركز الصحفي لمجلس الأتحاد الأوروبي في بروكسل تحت عنوان "أثر وسائل الأعلام الاجتماعية في الصحافة" قال الصحفي جان كواترير الذي يعمل مراسلاً لصحيفة ليبراسيون الفرنسية في بروكسل: "أستطيع أخذ مواد

ونشرها على مدونتي، ثم في الفيسبوك وتويتر، لأثبت لصحيفتي أن الناس يرغبون بالقراءة حول هذا الموضوع."

وأضاف كواترير أن مدونته ألهمت في بعض الأحيان صحيفته على نشر مقالات عن مواضيع كانت الصحيفة قد رفضتها أولاً.

وأضاف أن التفاعل مع القراء والمعلقين على المدونة يعطيه أفكارا لمقالات ويساهم في عمله.

إذا كانت صاحبة الجلالة الصحافة سلطة رابعة تراقب وتقيّم أداء السلطات الثلاث الأخرى وتنشر ما يسهم في تطوير هذا الأداء وتنقل المعلومات التي تهتم المجتمع، فإن التدوين قد أصبح بحق سلطة خامسة تراقب السلطات الأربع مجتمعة بصراحة وشفافية وجرأة.

الأمية الإلكترونية

الفجوة الرقمية :

نحن نعيش اليوم في عصر العولمة وثورة الاتصالات والمعلومات، حيث أصبح التعميم الرقمي في شتى جوانب الحياة أحد أهم العوامل الرئيسية لتحديث المجتمعات وتقدم الأمم. وفي الوقت ذاته، أخذت الفجوة الرقمية (Digital Divide) تزداد اتساعا، بين الدول المتقدمة، التي تستخدم أنجازات الثورة الرقمية على أوسع نطاق في الحياة اليومية وفي البحوث العلمية وميادين الاقتصاد والصحة والتعليم ومجالات عديدة أخرى، وبين الدول المتخلفة، التي أخفقت لحد الآن في توظيف هذه الأنجازات وفق خطط علمية مدروسة في تطوير مجتمعاتها.

وعلاوة على ذلك، ثمة فجوة رقمية أخرى داخل كل مجتمع. ففي الدول الصناعية المتقدمة، نجد أن الأغلبية الساحقة من السكان تمتلك مهارة استخدام الكمبيوتر

والبرامج والتطبيقات المتصلة بها، وتتوفر لها امكانية الدخول الى الشبكة العالمية للمعلومات (الانترنت) بكل يسر وسهولة ودونما انقطاع وفي شتى الظروف والامكنة مع وجود اقلية ضئيلة لا تحبذ الدخول الي الشبكة لأسباب سنتطرق اليها في الفقرات اللاحقة.

الأمية الألكترونية :

أما في الدول النامية، فأن استخدام الكمبيوتر الشخصي والدخول الى الانترنت يقتصر على فئة محدودة من الطبقة المتعلمة الميسورة، أما اغلبية السكان فأنها وان كانت تستخدم الهواتف النقالة على نطاق واسع، الا أنها ما تزال تعاني من (الأمية الألكترونية) وقطاع لا يستهان به من هذه الأغلبية يعاني أيضا من (الأمية الألف بائية)، وبتعبير آخر، فأن مفهوم الأمية اليوم لا يقتصر على من يجهل القراءة والكتابة، بل يشمل أيضاً من لا يعرف استخدام الكمبيوتر والانترنت.

الأمية المركبة:

(الأمية المركبة) بشقيها الألف بائي والألكتروني، لم تعد مقبولة في العالم الرقمي الجديد، ولدى منظمة اليونسكو والمنظمات الدولية الأخرى ذات العلاقة، برامج طموحة للقضاء على (الأمية المركبة) التي تعرقل تقدم البلدان النامية، في زمن اصبحت فيه تكنولوجيا المعلومات القاعدة الأساسية لمجتمع المعرفة. ولم يعد استخدام الكمبيوتر مع بزوغ الألفية الثالثة ترفاً، بل اصبح ضرورة ملحة وعنصراً اساسياً لا غنى عنه في الحياة. وعلى كل انسان معاصر يعيش في عصره وليس في الماضي، أن يمتلك مهارة استخدامه، وبعبكسه يعد في عداد الأميين الذين لا يتيسر لهم الأستفادة من ثورة المعلومات، وكأنهم خارج عصرنا الرقمي الجديد.

الأمية الوظيفية:

في عالم اليوم، نرى ان الأنشطة الاقتصادية والتخصصات العلمية والمهن الهندسية والطبية وغيرها، تتطلب الى هذا الحد او ذاك امتلاك مهارة استخدام برامج الكمبيوتر واجادة التعامل مع الانترنت. وكل خريج معهد أو جامعة أو أي شخص آخر يأمل في الحصول على عمل او وظيفة في تخصصه العلمي أو المهني، عليه معرفة المبادئ الأساسية لهذا الاستخدام، وقد ظهر في السنوات الأخيرة، مصطلح آخر - شاع استخدامه لدى الباحثين في الغرب- لا يختلف في مفهومه كثيرا عن (الأمية الالكترونية) وهو مصطلح (الأمية الوظيفية - Functional illiteracy) ويشير الى وجود فئة من الموظفين في مؤسسات الدولة - أي دولة - لا تمتلك المعارف والمهارات الضرورية، التي لا غنى عنها للأداء الوظيفي الجيد على وفق المعايير الحديثة في هذا المجال. وتشير البحوث الميدانية التي ان أكثر من نصف وقت العمل الوظيفي في المجتمعات المتطورة يصرف على معالجة ونقل وخرن المعلومات، بمعنى أن الخريجين الجدد من الجامعات والمعاهد ليس في الغرب فقط، بل حتى في بلادنا، لن يجدوا وظيفة او عملا ذهنيا او حتى كتابيا من دون اتقان التعامل مع الكمبيوتر والانترنت وينتهي بهم الأمر اما الى البطالة أو القبول بأي عمل جسدي بعيد عن تخصصاتهم.

وكان رئيس الوزراء الروسي ديميتري ميدفييف - وهو من أشد المنادين بضرورة التعميم الرقمي في جميع مفاصل الحياة - قد حث موظفي الدولة على وجوب الأمام بأساسيات (تكنولوجيا المعلومات) قائلا: " ينبغي الاستغناء عن خدمات الموظفين، الذين لا يعرفون استخدام الكمبيوتر؟ ان الموظف الذي لا يستطيع انجاز وثيقة بشكلها الإلكتروني أو الذي يخشى استخدام الكمبيوتر ينبغي ان يستغنى عن خدماته في دوائر الدولة. اننا لا نعين موظفين اميين في المؤسسات الحكومية واستعمال الكمبيوتر اصبح جزءا مهما من معرفة القراءة والكتابة الحديثة.

باحثون في بركة سباحة :

ان الأسباب الكامنة وراء (الأمية الألكترونية) و (الأمية الوظيفية) عديدة ومتباينة لدى الفئات العمرية المختلفة، وقد دلت التجارب العلمية أن قدرة وامكانيات الأنسان في التعلم تقل تدريجيا بتقدم العمر وان كبار السن يجدون صعوبة في تحصيل علوم واتقان مهارات جديدة وبضمنها اساسيات تكنولوجيا المعلومات وأستخدام الكمبيوتر.

لذا نجد في بلادنا كما في البلاد الأخرى ان عددا كبيرا من كبار السن المتعلمين، بينهم عدد لا يستهان به من أصحاب الشهادات العليا وحتى اساتذة الجامعات، لا يستطيعون استخدام الكمبيوتر والأنترنيت للحصول على المعلومات التي تهتمهم او يحتاجون اليها سواء في حياتهم اليومية او اعمالهم او في بحوثهم، وان كان كل هؤلاء شأنهم في ذلك شأن الأميين، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة وأشباههم من أنصاف المتعلمين يستخدمون الهواتف النقالة بفعالية.

الفئة الأكبر سنا من المشتغلين بالأعمال الفكرية والذهنية تعتقد ان الكمبيوتر والأنترنيت هو ولعب لا يليق بها وان من مستلزمات الوقار والهيبة هو الأبتعاد عن هذه البدع، التي يعجز معظم أفرادها عن فك رموزها. وتفضل اللجوء الى مصادر المعلومات التقليدية (الكتب و المطبوعات الدورية والوثائق الورقية) للحصول على المعلومات، التي تتطلبها أعمالهم وبحوثهم، واذا كانت المصادر التقليدية للمعلومات حوض سباحة أو حتى بحيرة صغيرة، فأن مصادر المعلومات الجديدة ونعني بها الشبكة العالمية للمعلومات بحر لا نهاية له.

أسباب أخرى لمقاطعة الأنترنيت:

ثمة شرائح في المجتمع لا يثيرالأنترنيت أهتمامها، نظراً لأسلوب حياتها، حيث ان طريقة عيشها تستند الى التقاليد والعادات والأعراف، وهي في العادة تتمتع بمكانة

اجتماعية وظروف مستقرة ولديها علاقات اجتماعية واسعة و وثيقة ولا يلعب الأترنيت دورا ملحوظا في حياتها اليومية.

كما لا يشكل الأترنيت ضرورة حياتية لدى سكان الأرياف في البلدان النامية، الذين لا يتطلب نشاطهم العملي وطريقة حياتهم ونمط ثقافتهم استخدام الأترنيت، وهذه الظاهرة تشمل سكان الأرياف حتى في بعض البلدان المتطورة ولكن بدرجة أقل بطبيعة الحال، بعض هؤلاء يريد العيش بالطريقة التقليدية ويرفض استخدام الأترنيت بمحض أرادته، والبعض الآخر لا تصل اليه خدمة الأترنيت، لأن شبكات الأترنيت لا تغطي مناطقهم. أي ان السبب تكنولوجي وليس شخصي.

ووفقا لدراسة حديثة شملت (١٨٥) بلداً بما فيها العراق، فإن متوسط سرعة الأترنيت متفاوت من بلد إلى آخر وحتى داخل البلد الواحد، ففي الوقت الذي بلغ متوسط سرعة الاتصال بالإنترنت ٤٩.٢ ميغابايت في الثانية في هونغ كونغ مثلا - وهي أسرع خدمة إنترنت في العالم - نجد ان العراق قد حل كالعادة في ذيل القائمة وفي المرتبة ١٧٩ بسرعة تنزيل بلغت ٠.٧٥ ميغابايت في الثانية.

وعلى اية حال لا ينبغي المبالغة في اهمية سرعة الأترنيت، لأنها ليست الاسباب ثانوية في عدم انتشار الأترنيت على نطاق واسع، سواء في العراق أو في أي بلد آخر في العالم. والأهم من ذلك هو العلاقة بين (الأمية الالف بائية) و (الأمية الألكترونية)، لأن استخدام الأترنيت يتطلب معارف يحصل عليه الإنسان في مقتبل عمره خلال دراسته، في حين أن استخدام الهواتف النقالة أبسط بكثير ولا يتطلب تعليما مسبقاً.

ان الأفتقار لأنظمة تعليمية حديثة تواكب الأتجاهات الرئيسية للتقدم العلمي - التكنولوجي المعاصر، هو السبب الرئيسي لـ (الأمية الألكترونية) وليس تردّي الأوضاع الاقتصادية او العادات والتقاليد الاجتماعية فقط. ومن أجل أشاعة الوعي المجتمعي بأهمية تكنولوجيا المعلومات، لا بد من تدريس أساسيات هذه التكنولوجيا، منذ المراحل الدراسية الأولى، كما هو معمول به في الدول المتقدمة. حيث يتم تدريسها كمقرر أساسي الى جانب العلوم الأخرى.

حركات وتيارات مناهضة للإنترنت :

وصفوة القول، أن استخدام تكنولوجيا المعلومات من مقومات تحديث المجتمعات ولكن ثمة دائما أشخاص لا يستخدمون الإنترنت. فهل يعني هذا أنهم معزولين عن العالم؟

لا شك أن مثل هؤلاء ينتمون الى اوساط معينة - لا يشكل فيها الانترنت قيمة عالية، وهي اوساط ما تزال موجودة في كل انحاء العالم.

وعلاوة على ذلك، ثمة نخب فكرية وثقافية، في البلدان المتقدمة، ترفض العالم الافتراضي عن وعي وادراك وقناعة وقد ظهرت في تلك البلدان - التي لن تجد فيها بقعة ليس فيها خدمة الإنترنت السريع، الا ما ندر- حركات اجتماعية وتيارات فكرية تدعو الى مقاطعة الإنترنت، الذي يستحوذ على اوقات الراحة ويحرم الناس من التواصل الاجتماعي الحي مع الأقارب والمعارف وزملاء الفكر والمهنة و يسبب أحيانا العزلة عن المجتمع أو الكآبة. كما ان قضاء ساعات طويلة أمام الكمبيوتر يؤدي الى قلة الحركة، التي تشكل - كما يقول الأطباء - احدى الأسباب الرئيسية للأصابة بأمراض شتى وفي مقدمتها أمراض القلب.

ورغم الانتشار الواسع والشامل للإنترنت، الا أنه ليس مفتاح السعادة والنجاح دائما، رغم ان الشركات التي توفر خدمة الإنترنت تحاول أقناع الناس على النقيض من ذلك.

القسم الرابع

بعض التأثيرات السلبية لتكنولوجيا المعلومات

هل الكتابة اليدوية في طريقها الى الزوال؟

وسائل الأتصال الرقمية، أزاحت الكتابة اليدوية جانبا. وكل من يتعامل مع المعلومات ويستخدم هذه الوسائل في عمله او حياته اليومية، لم يعد بحاجة الى الكتابة اليدوية الا نادراً وعند الضرورة فقط، مثل كتابة بضعة أسطر في دفتر الملاحظات أو التوقيع على مستند أو صك أو صورة أو كتابة هوامش وملاحظات على كتاب خلال قراءته، وهي عادة متأصلة عند العديد من المفكرين و الكتّاب.

فقد حل الكمبيوتر محل الأوراق الرسمية في أعمال الحكومة، وفي كل مجالات الحياة تقريبا في العديد من المجتمعات الغربية المتقدمة، وثمة اليوم في الولايات المتحدة الأميركية والدول الأوروبية مؤسسات ودوائر رسمية ومنظمات غير حكومية، ومعاهد ومدارس لا يستخدم فيها القلم والورق للكتابة اليدوية على الإطلاق. ولكن هل الكتابة اليدوية امر مهم حقاً في حياتنا؟ وهل هي ضرورية للبشر عموماً والمبدعين من الكتاب والشعراء والباحثين على وجه الخصوص؟ وهل يشكل أختفاؤها التدريجي ضياع نوع حميم من التواصل الإنساني عبر الرسائل المتبادلة بين الأقارب والأصدقاء والمعارف ولتعة لا تعوض للمحبين، ولعارف قد يطويها النسيان؟ ففي نهاية المطاف كل شيء يتغير في الحياة ويتطور بمضي الزمن. هل يتحسر أحد اليوم على أختفاء طرق الكتابة القديمة على ألواح الطين، وأوراق البردي، والجلود، والتقش على الصخور أو يتحسر على أنتفاء الحاجة الى الفاكس او الأسطوانات الموسيقية؟حقا ان المهم هو المحتوى وليس الوسيلة، و ما هو مكتوب باليد ليس سهلا ارساله أو خزنه. واطافة الى ذلك فإن الكتابة اليدوية ليست سهلة. ولكن من المبكر اليوم، القول بأن الكتابة اليدوية في طريقها الى الزوال.صحيح ان الأجهزة الرقمية الحديثة تساعدنا على مواكبة العصر، وأنجاز الأعمال على نحو أسرع، ولكن الجري وراء السرعة يفقدنا بعض ما هو جميل ورائع في حياتنا! حتى الماضي القريب، كانت الكتابة باليد تعد تطويرا للذات و مفتاحاً لفهم الآخرين والدخول الى عوالمهم. كان البعض يعتقد أن الكتابة اليدوية الجميلة و

الصحيحة عامل مساعد للتقدم الوظيفي، والنجاح في الحياة. مثل هذه الأفكار قد تبدو اليوم عتيقة لمن اعتاد على استخدام الكمبيوتر والهواتف الذكية في الكتابة و تبادل الرسائل و الملفات و الصور، ولكن التجارب العلمية أثبتت أن للكتابة اليدوية مميزات لا تتوفر في الكتابة الرقمية. يقول العلماء أن الكتابة اليدوية كما الرسم، يسهم في تطوير القدرة العقلية لأنها مرتبطة بالدماغ، أما الدق على لوحة المفاتيح فهي عملية سلبية، بمعنى أنه لا ينشط التفكير الأبداعي، لأن الأصابع تتحرك على لوحة المفاتيح بشكل عشوائي بلا أيقاع والدماغ يتلقى فقط الضوضاء الذي يمنع التفكير . . . الكتابة اليدوية أبطأ وتتناسب تماما مع سرعة التفكير وضرورة للتعلم، لأنها تتيح للإنسان معرفة أعمق وأكثر رسوخا.

وأثبتت التجربة التي قام بها فريق بحث "فيلاي" في مرسليليا انه يتم تنشيط أجزاء مختلفة من الدماغ عندما نقرأ حروفا تعلمناها من خلال الكتابة بخط اليد، عن تلك التي يتم تفعيلها عندما نتعرف على حروف تعلمناها من خلال كتابتها بواسطة لوحة المفاتيح. عند الكتابة باليد، تترك الحركات المعنية ذاكرة حركية في الجزء الحسي الحركي من الدماغ، الذي يساعدنا على التعرف على الحروف. وهذا يعني وجود علاقة بين القراءة والكتابة، ويؤكد فريق البحث، أن النظام الحسي الحركي يلعب دورا في عملية التعرف البصري في أثناء القراءة. و جاء في بحث علمي أنجز عام ١٩٨٩ في جامعة "فرجينيا" ان بعض المدارس الأميركية قامت بمحاولة تحسين الخط الرديء لعدد من طلابها و نجحت في ذلك، وهذا التحسن أدى في الوقت نفسه الى تعزيز عملية التعلم، وقدرة الطلاب على القراءة الصحيحة، وتشكيل العبارات، والجمل و تذكر النصوص بشكل أفضل. الكتابة اليدوية منذ الصغر تسهم في تشكيل الطبع الأنساني، وتطور قدرات الإنسان. والخط اليدوي ينم عن شخصية كاتبه ومن الصعب، ان لم يكن من المستحيل تغييره لأنه ميزة فردية، تماثل تماما الميزة الفردية لبصمات الأصابع.

الكتابة هندسة الروح، ونظافة الكتابة من نظافة الروح. الخط الجميل سمة للإنسان الواثق من نفسه و بفقدهانه نفقد كل روعة و جمال الأحرف التي تشكل الجزء الأهم من تراث الشعوب.

كيف تؤثر تكنولوجيا المعلومات في قدرة الإنسان على التفكير

التغير المستمر لوسائل الإعلام تحت ضغط ثورة تكنولوجيا المعلومات، يؤثر ليس فقط في طرق الحصول على المعلومات، بل في عملية التفكير أيضاً. وإذا رجعنا الى الوراء قليلاً، نجد أن اختراع آلة الطباعة سنة ١٤٥٠م، من قبل يوهان غوتنبرغ (١٣٩٨ - ١٤٦٨م)، قد غير أسلوب تفكير المجتمع بأسره. واجبر الناس لأول مرة على التركيز على افكار محددة. والذي كان سابقاً حكرًا على النخب العلمية والثقافية ورجال الدين، اما بعد ظهور الطباعة فقد أصبح ذلك ميسورا لكل المجتمع. آلة الطباعة لعبت دورا بالغ الأهمية في تطور نماذج تفكير جديدة . غيرت المجتمع في القرون اللاحق

. واليوم نجد أن شبكة الأنترنت تلعب دورا لا يقل أهمية عن اختراع الطباعة في تغيير المجتمع ان أهم ما تتميز به شبكة الأنترنت عن وسائل الإعلام الأخرى مثل الراديو والتلفزيون، ليس نقل الصوت والصورة فقط، بل انتاج النص ايضاً. والنص المكتوب يلعب دوراً جد مهم في التطور الفكري والثقافي للإنسان. وحتى وقت قريب كان النص ينتشر بشكله المطبوع، وكان القارئ يغرق في عالم المؤلف ويتأمل أفكاره ، ويظهر الأنترنت أخذ النص ينتشر بشكله الإلكتروني، كما الصوت والصورة ، وبهذا رجع الإنسان الى عاداته القديمة أي الى التفكير

العشوائي ، وتلقي المعلومات على نحو سريع وسطحي

لماذا يحدث كل ذلك؟ يقول العلماء ان دماغ الإنسان يتمتع بمرونة عالية ويستطيع التكيف مع الظروف المستجدة. وكان عالم وسائل الاتصال الجماهيري - الكندي - مارشال ماكلوهان (١٩١١ - ١٩٨٠م) اول من بين كيف أن التكنولوجيا يغير وعينا ببطأ ولكن بثبات. وقد أجريت خلال السنوات الأخيرة بحوث كثيرة حول تأثير التكنولوجيا الحديثة وبخاصة الإنترنت في الدماغ البشري وظهرت كتب عديدة من بينها، كتاب " المياه الضحلة The Shallows " لنيكولاس كارر. وبعد العلماء هذا التأثير مسألة مهمة وجادة لسببين:

الأول: تعاضم قدرة البحث عن المعلومات وتلقي كم هائل منها ومعالجتها، عن طريق محركات البحث في الإنترنت (غوغل، ياهو، اوبرا، يانديكس وغيرها كثير).

وثانيا: أصبحنا قادرين على القيام بعدة مهام في آن واحد بأستخدام الكمبيوتر و الأجهزة الذكية، مثل كتابة وصياغة نصوص، إجراء حوارات عبر الشات في الفيسبوك، تبادل الرسائل عبر الإيميل، وقراءة آخر الأخبار في التويتز. ولكن في الوقت نفسه، نفقد معظم قدراتنا علي الانتباه و التركيز والتأمل والتحليل العمق، ولن يكون بوسعنا التفكير بهدؤ حول أمر محدد واحد، ومن يعيش في العالم الافتراضي أو يقضي ساعات طويلة في تصفح المواقع الألكترونية ونوافذها الكثيرة وروابطها المتعددة، لن تكون لديه الرغبة في قراءة الكتب الجادة و تأمل محتواها.

ان الحصول الفوري على المعلومات و تدفق تيارات غزيرة ومتنوعة منها، عبر نوافذ كثيرة - عن طريق محركات البحث - قد ادى الى انخفاض القدرة على تذكرها وحفظها لمدة طويلة. ولم يعد لدى المتصفح الوقت الكافي والرغبة في قراءة النصوص المطولة، ولهذا السبب لجأ بعض المواقع الألكترونية الأجنبية الى نشر نصوص لا يزيد طول احداها عن (٤٠٠) حرفاً. ومع كل هذا التأثير السلبي لتكنولوجيا المعلومات، فأن من الصعب العيش بمعزل عن شبكة الأنترنت، التي أخذت تقتحم كل مجالات الحياة و أصبحت النافذة التي يطل منها الأنسان المعاصر على ما يحدث في العالم من حولنا في شتى المجالات الفكرية و العلمية والثقافية والسياسية و الاجتماعية، ناهيك عما توفره الشبكة من شتى أشكال التسلية والترفيه.

القدرة على التفكير تعني في المقام الأول استخدام المعارف المتوفرة للتوصل الى استنتاجات منطقية أكثر تعقيداً، واذا أردنا تبسيط الأمر، يمكننا القول ان نوعية الأستنتاجات الفكرية هي حاصل ضرب للمعرفة في القدرة التفكيرية. وبتعبير آخر لا يمكنك الحصول على استنتاجات صحيحة، الا بأستخدام كلا العاملين معاً على حد سواء، وحتى اذا كانت لديك معرفة واسعة فأنتك لن تكون قادراً على تنظيمها بشكل صحيح من دون القدرة على التفكير بنفس المستوى، وفي نهاية المطاف تحصل على كومة مواد مهضومة الى هذا الحد او ذاك ولكن مكدسة في

كومة غير متجانسة ، ومن جهة ثانية مهما كانت قدراتك العقلية عظيمة فأن عملك الفكري لن يكون اكثر من مجرد تعبير عن الرأي، اذا لم يستند الى المعرفة .

الثورة الصناعية الأولى وفرت للإنسان وسائط نقل جديدة مثل القطار والسيارة وأدت الى اضعاف قدرات الإنسان الجسدية والحركية والى تغيير مظهره الخارجي، وقد انتبه الناس الى التأثير السلبي لهذه الوسائط على أبدانهم و لجأ الكثير منهم الى ممارسة رياضة المشي والركض لتدريب الجسم والتغلب على الضعف الذي لحق به. ما يحدث اليوم نتيجة لثورة تكنولوجيا المعلومات، ربما أشد خطورة، لأنه يجرنا القدرة على التركيز والتفكير، وبعد سنوات قليلة ستكون الحاجة ماسة الى وسائل جديدة لتدريب الدماغ الأنساني .

القسم الخامس

قضايا وآراء

اغلق التلفزيون وابدأ الحياة

ليس هذا العنوان تعديلا لعنوان كتاب **ديل كارنيجي الشهير** (دع القلق وابدأ الحياة) كما يتبادر الى الذهن لأول وهلة انما شعار ترفعه وهدف تسعى الى تحقيقه منظمة (وايت دوت) الدولية وهي منظمة غير حكومية، تتخذ من العاصمة الأميركية مقرا لها وتوجد لها فروع في دول عديدة و منها المملكة المتحدة .

وتحاول المنظمة اقناع الناس في كل مكان بعدم اقتناء اجهزة التلفزيون والامتناع عن مشاهدة برامجها، لما تتركه من آثار سلبية على حياة الانسان وصحته البدنية والعقلية وعلى حياته الاجتماعية وتقول جين لوتوس – التي يعود اليها الفضل الأكبر في تأسيس المنظمة – اننا نحاول ان نعيد الى الناس حياتهم الخاصة التي فقدوها بسبب التلفزيون، هذا الجهاز الذي اصبح بديلا عن الأقارب والأصدقاء والجيران .

نحن نعرف أسماء ابطال المسلسلات التلفزيونية ولا نعرف أسماء جيراننا، التلفزيون ينتزع منا جزءا مهما من حياتنا ولا يقدم لنا بالمقابل شيئا ثميننا، والناس في الولايات المتحدة الأميركية يشكون دائما من ضيق الوقت ولكنهم يجلسون امام شاشة التلفزيون لساعات طويلة. و تقول الاستبيانات: ان المواطن الاميركي يقضي في المتوسط اربع ساعات امام التلفزيون كل يوم اي ما يعادل خمسة ايام في الشهر او شهرين في السنة، ونحن نسعى الى تحريرهم من شبك هذا الصندوق البلاستيكي، لأن التلفزيون يجرم الناس القدرة على التفكير المستقل ويجعلهم أسرى للتسلية ونهبها للأنفعال المستمر والقلق والتوتر.

والاطفال هم الاشد تأثرا” بالافرازات السلبية للأدمان التلفزيوني وتعرضا لمخاطره، ذلك لأن الجلوس أمام الشاشة لعدة ساعات كل يوم، يجرم الصغار من الحياة الطبيعية النشطة الضرورية لنموهم وصحتهم البدنية والنفسية ويشوه عملية تكوين الشخصية التي تتشكل في السنوات المبكرة من حياة الانسان. التلفزيون

يجعل الاطفال انعزاليين، لا يرغبون في الالعاب ويجدون صعوبة في تركيز الانتباه وينفرون من القراءة.

ويرى علماء النفس: أن التلفزيون ليس جزءاً " ضروريا للوجود الأنساني ولا يقدم ما يشري الثقافة الحقة، بل يعمل على تشويهها وتسطيحها ويجول افراد المجتمع من بناء مبدعين الى مراقبين سلبيين.

اما رئيس فرع بريطانيا لمنظمة (وايت دوت) ديفيد بارك - وهو صحفي - فقد بدأ حملته المناهضة للتلفزيون بالوقوف وسط لندن فوق جهاز تلفزيون عاطل مندداً " بالتلفزيون، لافتاً" الانظار الى آثاره السلبية وطالب بتخصيص اسبوع من كل عام يتخلى فيه الناس عن مشاهدة التلفزيون واطلق عليه اسم (اسبوع التلفزيون المغلق) وقد تبنت الصحافة الغربية عموماً هذه الفكرة وتم تطبيقها فى العام الماضى خلال الفترة (٢٢ - ٢٨) نيسان على نطاق واسع نسبياً، حيث قامت آلاف المدارس الأمريكية والبريطانية ببحث التلاميذ وأسرههم للأستجابة لهذه الدعوة وقامت المدارس بتنظيم فعاليات رياضية واجتماعية خلال (أسبوع التلفزيون المغلق) وقدمت هدايا وجوائز تشجيعية للتلاميذ، وقد لاحظ المعلمون ان الاطفال يبدون خلال هذه الاسبوع انضر واوفر صحة ونشاطاً " وأكثر حيوية ومرحاً".

وفي مجتمعاتنا الأسلامية المتخلفة يستحوذ التلفزيون ليس على وقت الفراغ فحسب بل يستأثر ايضاً بجزء لا يستهان به من الوقت المخصص للعمل والانشطة الاجتماعية والثقافية والرياضية، بسبب شحة وسائل التسلية الاخرى وخاصة فى ظروف فقدان الأمن والأمان، حيث يفضل سكان المناطق المضطربة فى العراق ملازمة بيوتهم لمعظم الوقت، وليس ثمة اى احصائية عن عدد الساعات التى يقضيها الفرد العراقى امام التلفزيون ولكن يمكن القول انه لا يقل عن (٦) ساعات فى اليوم فى الأقل، حيث احتلت هذه الوسيلة الإعلامية والترفيهية مكان الصدارة فى المجتمع العراقى وبخاصة بعد سقوط النظام الفاشى والأقبال الشديد الواسع النطاق على اقتناء اجهزة الستلايت التى كانت

محرمة طوال العهد الصدامى البغيض، وقد ادى ذلك الى عزوف العراقيين عن قراءة الكتب والصحف الى حد كبير.

ولا جدال فى ان الفرد العراقى يتعرض الى مخاطر كبيرة من جراء الأدمان التلفزيونى، أكثر من اى فرد اخر فى اى بلد من بلدان العالم، نظرا لما تقدمه القنوات التلفزيونية العراقية والعربية من برامج تتناول الأزمات اليومية والمعاناة المريعة للمواطن العراقى والتناحر بين امراء السياسة الجدد فى العراق على المغنم والمكاسب، وهى برامج تثير مشاعر الأحباط والخيبة والقنوط فى النفوس. ومما يزيد الطين بلة، العرض اليومى المتكرر لمشاهد العمليات الأرهابية البشعة من تفجير وقتل واختطاف وذبح. حيث يتعاطف المشاهد مع الضحايا فى بداية الأمر ويعتصر قلبه حزنا وألما وكمدا على ازهاق ارواح اناس أبرياء و لكن الأتسان يعتاد بمرور الوقت مثل هذه المشاهد. مهما كانت بشعة او سيئة و يتضاعل اهتمامه بصور الحوادث اليومية المفجعة والمرعبة فى آن معا ويعتبرها امرا عاديا وهنا مكمن الخطورة، لأن مثل هذه المشاهد والصور تترك اثارا سلبية بالغة الخطورة فى نفوس الجيل العراقى الصاعد وسلوكهم وتعرضهم الى شتى انواع العقيد والأنحرافات النفسية. وتشجعهم على العنف والقسوة، والأستهانة بالأرواح والقيم الأنسانية. أنها مسألة تستحق وقفة تأمل ودراسة من أجل حماية المواطن العراقى من الآثار السلبية لهذا الصندوق الساحر.

من المستفيد من احتكار المعلومات؟

تحاول الأنظمة الشمولية احتكار المعلومات وحصرتها فى نطاق ضيق ضمن النخبة الحاكمة و إدارة شؤون البلاد و العباد فى الخفاء أو من وراء الستار ليتسنى لها تمرير سياساتها بعيدا عن أنظار الرأى العام، وتتخذ فى كثير من الأحيان قرارات مهمة لصالح الحزب (القائد) أو الحاكم المطلق من دون الرجوع الى آراء الخبراء و ذوى الأختصاص أو احترام الرأى العام و مراعاة مصالح البلاد العليا.

و قد كان احتكار المعلومات على مدى التاريخ - و ما يزال الى يومنا هذا - سلاحا ماضيا و أداة فعالة بيد كل الطغاة لتضليل الجماهير و الاحتفاظ بالسلطة لأطول فترة ممكنة، و هذا الاحتكار هو السمة المشتركة بين الأنظمة اللاديمقراطية بصرف النظر عن الأساليب المتبعة لتحقيق ذلك.

وينطوى حجب المعلومات عن الرأى العام و عدم أشراكه فى مناقشة القضايا المهمة و فى اتخاذ القرارات بشأنها و التى تمس المفاصل الأساسية لحياة المجتمع و مستقبل أبنائه على أزدراء دفين للجماهير و عدهم رعايا للدولة و عليهم ان يسمعوا و يطيعوا و ينفذوا ما يأمر به الحاكم، لا مواطنين يسهمون فى حكم البلاد و من حقهم أن يحصلوا على المعلومات الكافية عما يحدث فى وطنهم و يناقشوها ليتسنى لهم الوصول الى رأى نهائى بصدد القضايا المطروحة.

و يختلف الأمر أختلافا جذريا فى ظل الأنظمة الديمقراطية الحقيقية، حيث تدرك الحكومة أنها وليدة الرأى العام و خادمة الشعب، تعبر عن أرائه و تحصر على مصالحه و تحمى حريته، لذا فإنها لا تخشى مصارحة الشعب بالحقائق و المعلومات المتوفرة لديها عن كل ما يهم الرأى العام معرفته و لضمان حق المواطن فى الأطلاع على المعلومات التى تمس حياته و حريته و حقوقه الشخصية و السياسية و الأقتصادية. و تنص دساتير الدول الديمقراطية و قوانين حرية المعلومات المنبثقة عنها على ضرورة مراعاة الشفافية فى عمل المؤسسات الحكومية و حق المواطن فى الحصول على

المعلومات و نشرها بأى وسيلة قانونية وبضمنها وثائق الحكومة و مراسلاتها وفق ضوابط معينة، كما تتضمن تلك القوانين لائحة محددة بالمجالات السرية ذات العلاقة بأمن الدولة، حيث يقتصر تداولها على الأجهزة الخاصة ولكن يمكن الأطلاع عليها أو نشرها عند الحاجة من قبل اللجان البرلمانية أو بناء على أمر قضائى. والغرض من وجود هذه اللائحة هو عدم تعسف السلطة فى تفسير أو اعتبار ما هو سرى على هواها. وقد حددت تلك القوانين فترات تتراوح بين (١٠ - ٣٠) يوم لتلبية طلبات المواطنين ومحاسبة الموظفين الذين يمتنعون عن تقديم المعلومات أو يقدمونها بشكل ناقص مما قد يؤدى الى إلحاق الأضرار بمصالح المواطن أو ينتهك حقوقه وحريةته.

و فى الوقت نفسه فإن قوانين حرية المعلومات فى تلك الدول تقيد حرية الحكومة و الشركات فى جمع المعلومات الشخصية عن المواطنين وتداولها أو اتاحتها للآخرين.

يتضح مما تقدم ان المبدأ الذى تعتمده النظم الديمقراطية يجمع بين ضمان حماية المعلومات السرية ذات العلاقة بأمن الدولة و اتاحة المعلومات الضرورية لمشاركة المواطنين فى اتخاذ القرارات التى تمس حياتهم. ويكتسب هذا الموضوع أهمية قصوى فى الوقت الراهن بالنسبة الى العراقيين، حيث يعيش المواطن منذ سقوط النظام السابق فى دوامة من التشويش المعلوماتى و خلط الأوراق و التصريحات المتناقضة للمسؤولين الجدد و سط تضليل اعلامى واسع تقوم به أجهزة الأعلام الحكومية و الحزبية لحجب الحقائق و المعلومات عن المواطنين من أجل التستر على الفساد الشامل الذى ينخر فى جسد الإدارة الحكومية المتخلفة و على الصفقات السياسية التى تتم وراء الستار لتقاسم المناصب والغنائم و الأمتيازات.

ان الغموض يكتنف جوانب كثيرة من حياة العراقيين و قضاياهم المصيرية، دون أن تحاول الجهات الرسمية ذات العلاقة القاء الضوء عليها، ناهيك

عن غمط حقوق المواطن العراقي فى حرية تداول المعلومات و حصوله على المعلومات التى تمس حياته و قضاياها المتعلقة و التى نصت عليها المواثيق الدولية و الدستور العراقي.

و اذا كنا نريد حقا إقامة نظام ديمقراطى حقيقى فى العراق، فأنا على العهد الجديد مصارحة الرأى العام فى القضايا المهمة و إتاحة الفرصة للمواطن للأسهام فى اتخاذ القرارات التى تمس حاضره و مستقبله من أجل بناء العراق (الجديد) حقا.

الإعلام مهنة وأخلاق يمارسها الإعلامي

التشريعات والقواعد بالأساس تعتمد على تعريفات قديمة لم تغب يوماً عن الوسائل الإعلامية الكلاسيكية لتكون الأخلاق والآداب والضمير والرقابة الذاتية أساس تصرفات الإعلامي والمؤسسات الإعلامية نفسها. ومن هنا تكمن أهمية البحث والوصول إلى قواعد تحددها سلوكية وأخلاقية عالمية ترسم طبيعة مسلك الإعلامي في ممارسة المهنة وهذه القوانين ربما تكون سيفاً ذو حدين تحمي الإعلامي من الوقوع في أخطاء المهنة التي يدفع ثمنها غالياً، وكذلك حماية الحرية الشخصية للناس من استخدامها كمادة للنشر من قبل الإعلاميين، ولذلك الإعلامي، في أشكاله وإشكالياته ومواقفه. عن هذه الأخلاق التي تفرض خارطة طريق لكل الإعلاميين والمؤسسات الإعلامية بمختلف لغاتها وقوميتها ومذاهبها تربطها جميعاً مفهوم المهنية والإعلامية وأخلاق الإعلامي الشخصية في ممارسة المهنة، يحدثنا عن هذا الموضوع في الحوار الصريح الكاتب والإعلامي الكردي جودت هوشار من العراق:

حاوره د. خالد ممدوح العزي

هلا نخبرنا عن جودت هوشيار؟

مهندس استشاري وكاتب وباحث عراقي، له عشرات البحوث والدراسات الفكرية والإعلامية والأدبية والسياسية المنشورة في المجلات والصحف العراقية والعربية.

أصدر العديد من الكتب منها :

سيكولوجية الإبداع الروائي، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٣، ذخائر التراث الكردي في خزائن بطرسبورغ، أربيل، ٢٠١١.

من كتبه المخطوطة صحافة العصر الرقمي، القوة الناعمة، العراق في مفترق طرق.

كيف تمارس مهنة الإعلام؟

أنا كاتب حر ومستقل، متعدد الاهتمامات. أكتب عن كل ما هو جديد في الفكر المعاصر عموماً وفي مجال الإعلام خصوصاً وله علاقة مباشرة بحياتنا وثقافتنا ومستقبلنا.

ماذا يعني الإعلام حالياً بعد الطفرة التكنولوجية الحديثة؟

بقدر تعلق الأمر بالأعلام، نحن نعيش اليوم ثورة معلوماتية جديدة، تتداخل فيها معظم وسائل الأعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، حيث تتنافس هذه الوسائل في ما بينها من جهة وتكمل الواحدة منها الأخرى من جهة ثانية. ولكن الطفرة التكنولوجية - واعتقد انك تقصد بذلك الثورة المعلوماتية تحديداً - لا تقتصر على وسائل الأعلام، بل تشمل أيضاً، تبادل المعلومات بين الإنسان والآلة وبين الآلات نفسها.

كيف تصف لنا حالة الإعلام في العراق؟

بعد عقود من قمع حرية التعبير وتحويل وسائل الأعلام إلى أبواب لتمجيد (القائد الضرورة) والدعاية للحزب الحاكم، ظهرت إلى الوجود بعد (التغيير) عشرات الصحف اليومية والأسبوعية وقنوات التلفزة المحلية والفضائية ومحطات الإذاعة الأهلية (الخاصة) وشبه الحكومية، حتى بات البعض يتحدث عن الفوضى الإعلامية أو الانفلات الإعلامي. وأرجو أن لا يتبادر إلى الذهن، أن ذلك ظاهرة صحية أو دليل على وجود حرية التعبير، لأن الأغلبية الساحقة من وسائل الأعلام في عراق اليوم

مؤدجة ومنتحبة أو ممولة سرا من قبل السلطة ومجندة للترويج لسياساتها. والعديد منها تتلقى تمويلا خارجيا من منظمات مشبوهة. ولا وجود لحرية الرأي والتعبير، إلا في أضيق الحدود. والى جانب هذه الجوقة الإعلامية الطائفية الجاهلة، التي لا تفقه شيئا في أساسيات العمل الصحفي، ثمة إعلام ليبرالي ناضج ورصين، يعمل فيه إعلاميون شجعان يؤدون واجبه المهني بصدق وأمانة وشرف، ولكن نظام الجهل المعمم يحاول التضيق عليه وخنقه بكل الوسائل المتاحة.

ويعرف القاصي والداني أن العراق من أخطر البلدان بالنسبة إلى الإعلاميين. والخطر المحدق بهم، ليس مصدره الإرهاب الأعمى حسب، بل، السلطة المستبدة، التي تحارب الأعلام الليبرالي المهني، بسبب دوره الفعال في الكشف عن قضايا الفساد السياسي والمالي والإداري. ورغم كل هذا فإن الأصوات الإعلامية الحرة، على قلتها، أخذت شيئا فشيئا تستحوذ على اهتمام الجمهور العراقي، ولعل خير دليل على ذلك، أن أي فضائية عراقية تتبني المطالب الشعبية تقفز خلال أيام الى القمة في نسبة المشاهدة، بمعنى أن الشعب العراقي لم يعد يصدق الأعلام العراقي المؤدلج - بشقيه الحكومي والخاص - ويتطلع لمعرفة الحقيقة من الأعلام الحر. وهذا دليل على وعي الشعب العراقي.

أين يتموضع الإعلام العراقي بظل الانقسام الأفقي والمناطقى للشعب العراقي؟

لا توجد في العراق اليوم دولة بالمفهوم الحقيقي لهذا المصطلح، بل سلطة متخلفة وجاهلة، تتاجر بالدين، ولا تستطيع البقاء في الحكم، إلا بتأجيج النعرة الطائفية وافتعال الأزمات للإلهاء الشعب عن معاناته القاسية، كما أن أحزاب الإسلام السياسي الأخرى، المشاركة في الحكم شكلياً، لا تقل عن حزب الدعوة الحاكم في عمل كل ما من شأنه تعميق الانقسام الطائفي. ولا أدل على ذلك أن أوصال العاصمة بغداد مقطعة اليوم إلى (غيتوات) حسب التقسيم المذهبي.

الأعلام الطائفي الهابط والرخيص، بات أحد أهم أدوات الصراع السياسي على السلطة والنفوذ والمال، ويسهم من دون أي وازع مهني وأخلاقي في تعميق الانقسام المذهبي والمناطقى في البلاد.

اخبرنا عن الإعلام الكردي؟

الأوضاع العامة في إقليم كردستان مختلفة تماما عن بقية أجزاء العراق، فهناك طفرة عمرانية وخدمية وإدارة مدنية وإعلام أكثر مهنية، قياسا إلى بقية أجزاء العراق. ويمكن ملاحظة أربعة اتجاهات في الإعلام الكردي:

الأول: الإعلام الحزبي وشبه الرسمي لحزبي السلطة، وهو إعلام رصين ينقل ما يحدث في المجتمع أولا بأول ويعكس الأضواء على ما يعانیه من وجهة نظر الحزبين بطبيعة الحال. ولا يرحب كثيرا بالرأي الآخر وخاصة في القضايا السياسية الحساسة.

الثاني: إعلام حركة التغيير (حزب المعارضة الرئيس في الإقليم)، ومما يؤخذ على إعلام الحركة أنه يركز كثيرا على مظاهر الخلل والضعف في الأداء الحكومي، من دون التعمق في دراسة تلك المظاهر وتقديم معالجات حقيقية لها. إعلام لا يرى سوى السلبيات ولا يتحدث قط عن أي انجاز حكومي. إنه بهذه النظرة الأحادية يضعف كثيرا من تأثيره على الرأي العام .

الثالث: الأعلام السلفي المؤدلج - للأحزاب الدينية المعارضة - وهو إعلام متخلف ومنحاز، يشوه الحقائق ويحرف الأخبار ويركز على السلبيات التي لا تخلو منه أي مجتمع من المجتمعات والأخطر من ذلك كله أنه إعلام تحريضي، يمجّد الإرهاب باسم الجهاد، ويكفي القول أن بعض الشباب الكرد المنتمين أو المتعاطفين مع تلك الأحزاب

التحق بالجماعات التكفيرية التي تقتل أبناء جلدتهم كرد سوريا. وأرى أن هذه الأحزاب وإعلامها التحريضي خطر على حاضر ومستقبل الشعب الكردي .

الرابع: الأعلام الأهلي أو الخاص أو بتعبير أكثر دقة (الأعلام التجاري)، الذي يدعي الاستقلالية ولكن القسم الأكبر منه مرتبط بالأحزاب السياسية بشكل أو بآخر. وهو إعلام يعتمد الأخبار المجهلة والعناوين المضللة والصارخة والتركيز على الفضاء الحقيقية والموهومة والتابوهات الاجتماعية وخاصة الجنس بصورة المختلفة. ويعمل فيه منات الإعلاميين، الذين اتخذوا من الإعلام مصدر رزق من دون أن يمتلكوا الحد الأدنى من المؤهلات المطلوبة للعمل في هذا المجال الحيوي.

ما أهمية الإعلام الكردي في دول انتشار الكرد؟

الأعلام الكردي في دول (التقسيم) الأخرى ما عدا العراق، محدود التأثير نظرا لتضييق الخناق عليه، في كل من تركيا وإيران أو محلي كما في سوريا على عكس الأعلام الكردي في كردستان العراق، الذي يمارس دورا كبيرا وتأثيرا هائلا على الكرد في بقية أجزاء كردستان. وثمة أيضاً إعلام قوي لحزب العمال الكردستاني في الدول الأوروبية على وجه الخصوص. إضافة إلى الأعلام الكردي في جمهوريات ما وراء القفقاس، وهو إعلام ثقافي في المقام الأول.

كيف تعيش الصحافة الكردية اليوم على المفهوم القومي أو المهني؟

منذ التقسيم الأول لكردستان بين الدولتين العثمانية والفارسية بموجب اتفاقية (جالديران) في عام ١٥١٤ ومن ثم التقسيم الثاني بعد الحرب العالمية الأولى إلى أربعة أجزاء بموجب اتفاقية (سايكس - بيكو) وحتى يومنا هذا، قدم الكرد تضحيات سخية للغاية، ربما لم يقدمها أي شعب آخر في العالم، لذا من الطبيعي

والبيدهي أن يعمل الكرد اليوم على تعزيز وإبراز هويتهم القومية، التي حاول أعدائهم طمسها، والصحافة الكردية تسهم بقسط وافر في التركيز على القضايا القومية الملحة ودعم نضال الشعب الكردي في أجزاء كردستان الأخرى. وأرجو أن لا يذهب الظن بالبعض إلي المقارنة بين الاتجاه القومي العربي الشوفيني وبين الطابع القومي للحركة التحررية الكردية، ذلك لأن الكرد كانوا ضحية الشوفينية العربية والتركية والفارسية ولا توجد لهم لحد الآن دولة تجمع شملهم وتضمن حقوقهم، في حين أن للعرب اثنان وعشرون دولة ورغم أن الاتجاه القومي هو الغالب على الأعلام الكردي عموما ولكنه من دون أدنى شك أكثر مهنية ومصداقية من الأعلام العراقي العربي.

أنت تتوقف بكتابتك عن أخلاقيات المهنة الإعلامية لماذا؟

لأن ثمة ظاهرة واسعة للانتشار - مع شديد الأسف - في الأعلام العراقي الحالي، وهي ظاهرة الأخبار الملفقة والتشهير والتجريح بذريعة النقد، وهي أبعد ما تكون عن النقد النزيه البناء، ويكفي القارئ الكريم أن يشاهد فضائية عراقية، سواء تلك التي تبث من خارج العراق أو من داخله، ليتبين إلى أي حضيض انحدر الأعلام العراقي: مهارات وتسقيط سياسي واتهامات متبادلة بين الساسة، ما أنزل الله بها من سلطان. وهذه نتيجة طبيعية للأوضاع العامة المتزدية في العراق: إرهاب حكومي وميليشياوي وأجنبي أيضا وجرائم منظمة وتعاطي للمخدرات والتدخل اللفظ في أخص الأمور الشخصية وفرض الحجاب بالقوة على النساء حتى على بنات في عمر الورود والفصل بين الجنسين في المدارس وزواج المتعة والمسيار وما إلى ذلك من البدع التي هي علامات انحدر خلقي وسياسي والأبواق الإعلامية تروج لكل هذه الأمور بدلا من أن تحاربها .

في مقالك تتوقف أمام دور الصحافي والصحافة الصفراء هل هذا واقع العراق او المنطقة كلها؟

يرتبط ظهور الصحافة الصفراء في الغرب بمرحلة تاريخية معينة مع ظهور وتنامي الطبقتين المتوسطة والعاملة بعد الثورة الفرنسية. الموظف أو العامل العائد الى بيته بعد يوم عمل شاق، كان يبحث عما يسليه ويرفه عنه، وعلى هذه النحو أضيفت وظيفة جديدة الى الصحافة وهي وظيفة التسلية والترفيه، وهذا لا يعني ان الثقافة الترفيهية لم تكن موجودة من قبل ولكنها كانت محبأة في بطون الكتب.

الصحافة الصفراء صناعة غربية، ولا توجد صحافة صفراء عربية ام كردية ، بل صحافة تجارية تتسم ببعض العناصر(الصفراء)، وهي عناصر، تشكل توايل للصحافة المحلية الهابطة الحالية من أي مضمون ذي قيمة، وتجذب القارئ البسيط بصورها المثيرة ومانشيتاتها الصارخة. وحتى بعض المجالات التي تعنى بالجنس والتي ظهرت في السنوات الأخيرة في بعض البلدان العربية وفي إقليم كردستان أيضاً، فأنها تجارة تهدف الى الربح عن طريق دغدغة الغرائز قبل ان تكون صحافة صفراء بكل ما يعنيه هذا المصطلح، لأن تابوهات الحياة الشرقية والإسلامية تحديدا لا يترك مجالا واسعا لهذه الصحافة ان تأخذ مداها الواسع وتتحدث عن المغامرات الجنسية لنجوم المجتمع وتتلصص على حياتهم في خلواتهم الخاصة وتتحول الى صناعة ذات شأن كما هو الحال في الغرب.

أنت تصف المدونات بأنها السلطة الخامسة التي تراقب السلطة الرابعة وتعمل على تصحيح مسارها؟

الفرق بين الصحافة التقليدية وبين الصحافة الرقمية الجديدة، هو ان الأولى صناعة يعمل فيها محترفون، اما الثانية فهي فضاء مفتوح لكل من يتعامل مع الكمبيوتر او الأجهزة اللوحية والذكية ولديه اتصال بالانترنت. الصحافة الجديدة صحافة تفاعلية، وفضاء مفتوح للأراء الحرة العابرة للحدود. والمساهمون في هذا الفضاء الواسع أكثر عددا - من الصحفيين المحترفين على مستوى العالم- أضعافا مضاعفة. والناشطون منهم يشخصون مشاكل مجتمعاتهم ويراقبون أداء السلطات الأربع الأخرى وينتقدونها. صحيح ان معظم هؤلاء النشطاء هواة متطوعون ولكن لهم تأثير عظيم على الرأي العام ويزداد هذا التأثير بمضي الزمن، وهم اسرع من الصحافة الورقية وحتى من الإذاعة والتلفزيون في نقل الأخبار والتقارير والصور ومقاطع الفيديو من مواقع الأحداث مباشرة، وقد كان هؤلاء الناشطين فضل كبير في اندلاع ثورات الربيع العربي، وحققوا نتائج تاريخية عظيمة عجزت عنها الصحافة التقليدية.

لماذا يتحول الصحفي في الدول العربية الى سياسي ويتعد عن ممارسة مهنيته الاعلامية؟

لا يوجد صحفي محايد سياسيا تماما، حتى في الأنظمة الغربية الديمقراطية العريقة، فالصحفي، اذا كان يعالج قضايا سياسية ولا يكتب عن آخر فضائح نجوم السينما والمجتمع مثلا، فأن آرائه الشخصية لا بد ان تنعكس على كتاباته الى هذا الحد أو ذاك. ولكن ثمة درجات من الابتعاد عن الموضوعية والانحياز السياسي. فالصحفي الغربي يخفي انحيازه بمهارة ويبدو مقنعا في معالجته الصحفية، ثم ان هذا الأخير يكسب

الكثير من المال من مهنته وعالم الصحافة مفتوح أمامه، وليس مضطراً الى مجاملة رئيسه في العمل ولا يخشى قطع رزقه بسبب آرائه، كما هو الحال في العراق مثلاً.

السياسة في بلداننا لها علاقة مباشرة بحياة الصحفي ومستقبله ولا يمكن له، ان يتجاهل ما يحدث حوله من احداث ساخنة وتطورات سياسية متلاحقة. إضافة الى هذا الصنف من الصحفيين، ثمة في العراق الخاضع لسلطة حزب الدعوة الحاكم عدد كبير من الطارئین على مهنة الصحافة، وأصحاب الأقلام المأجورة، الذين لا يمتلكون ثقافة أو موهبة، وتحولوا الى أبواق للدجل والشعوذة وأدوات للمهاترات السياسية.

نص الحوار الصحفي، الذي أجراه معي، الأستاذ الدكتور خالد ممدوح العزي، وهو استاذ جامعي لبناني متخصص في الأعلام. وقد نشر الحوار في عدة وسائل اعلام عراقية وعربية في أوائل آذار ٢٠١٤

الصحافة الكردية بين الأمس واليوم

يعود الفضل في تحديد يوم الصحافة الكردية والأحتفال به في الثاني والعشرين من شهر نيسان من كل عام الى الاكاديمي الراحل الدكتور معروف خزندار، الذي عشر في أوائل السبعينات من القرن الماضي على نسخة أصيلة من جريدة "كردستان" التي صدرت في العاصمة المصرية القاهرة في (٢٢-٤-١٨٩٨) من قبل مقداد مدحت بدرخان كأول جريدة كردية في التاريخ، وكانت تطبع بأربعة آلاف نسخة، وهو رقم كبير حتي بالنسبة للصحف الكردية في يومنا هذا.

لعبت الصحافة الكردية منذ ظهورها وعلى مدى أكثر من قرن، دورا تاريخيا مجيدا فى ايقاظ الوعى القومى وبلورة أهداف الحركة التحررية الكردية والتعبير عن الأمنى القومية والتطلعات الأنسانية لأمة مجزأة ومضطهدة والدعوة الى اشاعة الديمقراطية، كما اسهمت على نحو مؤثر وفعال فى نشر المعارف الحديثة والأفكار الإصلاحية مثل العدالة الأتجتماعية والمساواة وضمن الحريات الأساسية وسيادة القانون، وتوسيع قاعدة التعليم المجانى والدفاع عن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل وتحديث المجتمع فى كافة مجالات الحياة.

ان الرسالة الوطنية والأنسانية التى نهضت بها الصحافة الكردية خلال قرن ونيف، كانت تستدعى ان تكون صحافة رأى فى المقام الأول، شأنها فى ذلك، شأن الصحافة المعبرة عن طموحات وتطلعات الشعوب المناضلة الأخرى من اجل نيل حقوقها المشروعة و على النقيض من الصحافة الغربية التى نشأت وتطورت كصحافة خبر.

كانت الصحف والمجلات الكردية فى بداية نشأتها وحتى عهد قريب بسيطة فى تحريرها واخراجها، تهتم بالرأى قبل المظهر والشكل وتعبر بصورة مباشرة عن رأى الجهة التى تمثلها او تنطق بأسمها او رأى ناشرها الذى كان فى معظم الأحيان احدى

الشخصيات السياسية او الاجتماعية او الثقافية الكردية المعروفة (أبناء الأمير بدرخان، بیره ميرد، الأخوين حزني وكيو موكرياني... الخ)، وكان عدد لا بأس به من الأدباء المتطوعين، يعملون في تلك الصحف والمجلات او يسهمون في تحريرها من دون أجر او مكافأة وكان العمل الصحفى جهادا حقيقيا من اجل نشر المبادئ والتعبير عن وجهات النظر المختلفة، التي كانت غالبا ما تتعارض مع السياسات الرجعية والشوفينية لحكومات الدول التي تتقاسم كردستان، لذا فقد تحمل الصحفيون الكرد الرواد مخاطر المهنة بكل جدارة وقدموا التضحيات الجسام وتعرضوا الى الملاحقة والقمع وشتى صنوف التهيب. وعلى الرغم من ان مقص الرقيب كان مسلطا على الصحافة الكردية في معظم الأحيان، و كانت الرقابة مزاجية، حيث تسمح او تمنع نشر ما تشاء، الا ان مصير كثير من تلك المطبوعات الدورية ، كان الغلق لفترات مختلفة او الغاء الأمتياز.

لذا، ليس من قبيل المصادفة ان الجريدة الكردية الأولى (كردستان) تأسست في المنفى، وفي مدينة (القاهرة) تحديدا واضطرت تحت ضغط السلطات العثمانية التعسفية الى نقل مقرها من العاصمة المصرية الى جنيف اولا ثم الى مدن اوربية اخرى، حيث كانت السلطات العثمانية تلاحق الجريدة من دولة الى اخرى مستخدمة نفوذها السياسى والدبلوماسى لدى الدول المضيفة للجريدة الكردية الأولى.

واذا كان آل بدرخان قد استطاعوا وبشق الأنفس اصدار (٣١) عددا من جريدتهم الرائدة، الا ان ثمة عشرات الصحف والمجلات الكردية، التي لم يصدر منها سوى عدد واحد او بضعة اعداد، بسبب ضعف الأماكن المادية او محاربة السلطات لها وندرة الكوادر الصحفية المؤهلة لأدارتها.

وغنى عن البيان، ان الصحافة الكردية ولدت وتطورت فى خضم الحركة التحررية الكردية وعبرت اصدق تعبير عن مبادئ هذه الحركة واهدافها، وكانت دائما فى خدمة قضايا الشعب والوطن، ورغم الظروف الشاذة، التي رافقت نشأتها وتطورها، الا انها أدت دورا تاريخيا بالغ الأهمية.

اما اليوم، فإن التجربة الديمقراطية التي يمر بها شعبنا فى كردستان العراق والتطور الملحوظ فى تقنية الصحافة و تغير مفهوم الرسالة الصحفية، قد أدى الى وضع صحافتنا أمام تحديات جديدة وجادة، فقد تغير العالم من حولنا كثيرا فى العقدين المنصرمين وحدثت تطورات مذهلة فى وسائل الأتصال الجماهيرى وظهرت وسائل جديدة، فى مقدمتها البث التلفزيونى الفضائى والأنتريت و الصحافة الألكترونية، التى تستقطب اليوم اهتمام المشاهدين و تستحوذ على الجزء الأكبر من اوقات راحتهم و تنافس وسائل الأعلام التقليدية ومنها الصحافة المقرؤة وتتفوق عليها من حيث القدرة على النقل الآتى الحى للحدث لحظة وقوعه.

هذه الوسائل الجديدة التى تنقل المضامين والأفكار والأحداث عن طريق الصوت والصورة فى آن معا وبسرعة الضوء، متخطية الحواجز الجغرافية والسياسية، حولت كوكبنا الى قرية عالمية - حسب تعبير العالم الكندى مارشال ماكلوهان - وجعلت من الأعلام السمعى - البصرى قوة مؤثرة تسهم فى تكوين وتغيير قناعات الرأى العام وأداة ضغط هائل على الحكومات و صانعى القرارات ووسيلة من وسائل الديمقراطية المباشرة (التي تتميز بأستخدام التلفزيون الفضائى والأنتريت فى استجلاء اراء الناس وردود فعلهم ازاء الأحداث المهمة والقضايا القضايا الحساسة واتخاذ القرارات فى ضوء ذلك).

وقد اضطرت الصحافة المطبوعة فى الدول المتقدمة الى تغيير سياساتها وتوجهاتها تحت تأثير التطور التكنولوجى وظروف ومتطلبات العصر الراهن، واستطاعت ان تتكيف مع التطورات الجديدة فى مجال الأتصال الجماهيرى بأتباع وسيلتين :-

الأولى: اللجوء الى التخصص، حيث اخذ كل مطبوع دورى - سواء اكان على شكل جريدة او مجلة - يخاطب جمهورا معيننا له هوايات واهتمامات محددة او يتوجه الى فئة معينة - من حيث الجنس والعمر - او اصحاب مهن متشابهة - مثل الأطباء، المهندسين، المحامين، رجال الأعمال - او يتخصص فى مجال معين من مجالات العلوم والتكنولوجيا، وما الى ذلك.

والثانية : التركيز على الأحداث والوقائع المحلية المهمة وعلى الأخبار التي تهتم القراء والمعلومات التي تساعدهم على تكوين وبلورة آرائهم وقناعاتهم بأساليب ومعالجات تتسم بالحيوية والتشويق وقادرة على إثارة فضولهم، بما تقدمه من تفسيرات تفصيلية للوقائع الأنية على درجة عالية من الدقة والموضوعية، وبذلك أصبحت الصحافة المطبوعة عنصرا مكملا للإذاعة والتلفزيون، حيث تعزز ما تبثه المحطات الإذاعية والقنوات التلفزيونية من اخبار وبرامج مختلفة.

و تشهد الصحافة الكردية المطبوعة اليوم انتعاشا كبيرا وتعمل في اجواء مختلفة تماما عن العهود السابقة، ويتمثل ذلك في هذا الكم الهائل من الصحف والمجلات الدورية الصادرة في الأقليم التي باتت محط انظار زوار كردستان، كما يتجلى في تقنية الطباعة الحديثة نسبيا واساليب التصميم الفني والأخراج الصحفى، وان كان هذا التطور متواضعا قياسا الى التطور الحاصل في الدول المتقدمة وعدد من دول المنطقة وبخاصة دول الخليج ولبنان، ولكنه تطور ملحوظ اذا اخذنا بعين الاعتبار ندرة الكوادر الكردية الفنية المؤهلة في مجال تقنية الصحافة المتقدمة.

بيد ان هذا التوسع الأفقى والتطور التقنى لم يتحولا بعد الى تطور نوعى في المستوى المهنى للصحافة الكردية، فهى ما تزال أسيرة التقاليد الصحفية القديمة والآراء الجاهزة، اى انها صحافة رأى او بتعبير ادق صحافة مقالات، قبل ان تكون صحافة خبر، فى زمن اخذ هذا النوع من الصحف والمجلات يتراجع بل يخفى حتى فى الدول النامية - ناهيك عن الدول المتقدمة - لأن صحف الرأى أصبحت عاجزة عن استقطاب اهتمام الجمهور القارى والتفاعل معه، و غير قادرة على منافسة وسائل الأعلام السمعية - البصرية.

يقال احيانا ان التطور اللاحق للصحافة الكردية، يرتبط بظهور الصحافة الأهلية المستقلة (صحافة القطاع الخاص) فى الأقليم، الى جانب الصحافة الرسمية والحزبية، ولكن علينا ان لا ننسى ان الصحفيين فى الغرب ناضلوا طويلا من اجل التحرر من سيطرة رأس المال الموظف فى الصحافة وان القيود التي كانت تفرضها الجهات الممولة

للصحف على ما ينشر فيها من مواد، لم تكن بأى حال من الأحوال اهون من قيود الصحافة الموجهة من قبل الحكومات القمعية والأنظمة الأستبدادية، ولقد اثر نضال الصحفيين فى الغرب عن مكاسب مهمة، لعل فى مقدمتها، مساهمة الصحفيين فى ادارة المؤسسات الصحفية واستقلال هيئة التحرير عن الأدارة واصحاب الصحف. وقد ادى ذلك الى تغيير مفهوم حرية الصحافة التى لا تقتصر على حرية التعبير وابداء الرأى، بل يشمل ايضا ضرورة اعلام المواطن على اكمل وجه ممكن بكل ما يمسه حياته ومستقبله وتوفير المعلومات التى تمكنه من الوصول الى قنوات محددة بشأن قرارات السلطة والتعبير عنها عبر شتى الوسائل وبضمنها الأنتخابات العامة الحرة النزيهة، وهذا تحول بالغ الأهمية من مبدأ حرية الصحافة الى مبدأ حق المواطن فى الأعلام، وهو حق يعكس الرغبة المتزايدة فى معرفة الوقائع، كل الوقائع المهمة، وفى ضوء هذه الحقائق يمكننا ان ندرك الأسباب الحقيقية وراء عزوف القارئ الكردستانى عن معظم ما ينشر فى صحافتنا المحلية، ما عدا بعض الحالات المحددة، عندما يكون هناك احداث بارزة او قرارات لها علاقة بهوموم وحياته اليومية وبخاصة ما يتعلق منها بالخدمات والسكن والتعليم والأسعار وانظمة الخدمة والتقاعد وما شابه ذلك.

ان التقنية الحديثة وحدها غير كافية لجعل الصحافة الكردية المطبوعة، صحافة مقروءة على نطاق واسع. والبعض من اهل الصحافة والمثقفين الكرد، يعزو ذلك الى قلة الكوادر الصحفية المؤهلة والمتخصصة وتدنى القدرة الشرائية للمواطنين عموما والمثقفين منهم على وجه الخصوص، الذين يشكلون الجمهور القارئ الأكبر لصحافتنا المطبوعة، وهذا صحيح جزئياً وبقدر تعلق الأمر بندرة الكوادر الصحفية المؤهلة، أما القدرة الشرائية فقد أرتفعت اليوم كثيراً فى السنوات الأخيرة ومع ذلك لا نجد أقبالاً كبيراً على قراءة ومتابعة الصحف عموماً ما عدا بعض الصحف، واسعة الأنتشار فى الأقليم التى تستقطب اهتمام القراء، خاصة حين تنشر بعض الأخبار والموضوعات المحلية الساخنة، ذات المساس المباشر ببعض جوانب الحياة اليومية للمواطنين او ما يثير اهتمامهم وفضولهم، فبى حين ان الكثير من الصحف والمجلات الأخرى تتكدس فى الأكشاك والمكتبات دون ان تشير اى اهتمام لدى القراء، ومع ذلك، فهى مستمرة

بالصدور، وهذا الأمر يثير تساؤلات عن مصادر تمويلها! ويقال ان البعض منها صحف حزبية تدعي الأستقلالية.

القارئ الكردستاني قارئ ذكي ونهم، وله اهتماماته الفكرية والحياتية وارائه الخاصة فى كل ما يتعلق بحياته اليومية ومستقبله وفى ما يجرى من حوله و فى العالم من احداث، لذا فأن المواد الصحفية المملة والبعيدة عن ميوله وهمومه ومشاكله لا تهتمه كثيرا، كما ان الوسائل الإعلامية الأخرى (الأذاعة، التلفزيون، الأنترنيت) قادرة على تغطية الأحداث الخارجية بشكل اسرع واكثر تشويقا وجاذبية من الصحافة المحلية المطبوعة. لذا فأن القارئ على حق دائما، لأنه حين يقتنى اى صحيفة او مجلة محلية، يتوقع ان يجد فيها ما يثير اهتمامه ويشبع فضوله وما يسهم فى اعطاء صورة حقيقية للواقع المعاش.

صحيح ان صحافتنا الكردستانية تتطور اليوم بخطى حثيثة نحو مزيد من التطور النوعى وتعمل فى اجواء هادئة ومستقرة الى حد كبير وفى اطار المصلحة العامة والقيم العليا للمجتمع الكردستاني ولا تخضع لأية رقابة او قيود رسمية، ولكنها صحافة تغلب عليها الصفة الحكومية او الحزبية، ولا توجد الا صحف اهلية قليلة مستقلة فعلا، ولا يرجع ذلك الى اسباب سياسية، بل الى اسباب تجارية فى المقام الأول، لأن الصحف الأهلية صحف خاسرة تجاريا (من دون الدعم الحزبي)، ولكن مع ذلك، فأن الصحافة الكردية ما زالت وفيه لتقاليدها الوطنية والنضالية المحيطة، ولكننا نطمح ان تكون ايضا صحافة معاصرة – صحافة خير ورأى فى ان معا واداة فعالة للرقابة الشعبية المستقلة على نشاطات السلطة التنفيذية وان تنهض بدور أكبر فى تطوير التجربة الديمقراطية فى كردستان.

حكاية الجريدة الأطول عمراً في تاريخ الصحافة الكردية

في خريف العام ١٩٥٩ عندما كنت أتهياً للسفر الى موسكو ضمن اول مجموعة من طلبة البعثات التي أوفدها حكومة ثورة ١٤ تموز المجيدة الى الأتحاد السوفيتي، طلب منى الصديق الراحل الشهيد مهيب الحيدري أن أبعث له بانتظام نسخاً من جريدة "ريا تازه" أى "الطريق الجديد" الكوردية، التي كانت تصدر في "يريفان" عاصمة جمهورية أرمينيا السوفيتية ونسمع عنها كثيراً في أربيل.

وبعد أيام من وصولي الى موسكو اشتركت في الجريدة، وكنت أتلقيها من صندوق البريد بشوق ولهفة والقي نظرة عجل على عناوينها الرئيسية قبل أن أبعثها الى الصديق الراحل، الذي كان ينتظر آخر عدد من الجريدة على أحر من الجمر.

كانت الجريدة بحجم (التابلويد) وتصدر مرتين في الأسبوع بأربع صفحات. ولم تكن تختلف كثيراً عن الصحف السوفيتية الأخرى من حيث توجهاتها الفكرية والأعلامية، سوى أنها باللغة الكردية، ومع ذلك كانت لها نكهة خاصة لأنها كانت الجريدة الكوردية الأولى والوحيدة في الأتحاد السوفيتي.

أول جريدة كوردية رسمية:

صدر العدد الأول من الجريدة في ٢٥ آذار ١٩٣٠ في يريفان باللغة الكردية (الكرمانجية الشمالية) وبالحروف اللاتينية التي وضعها الكاتب الروائي الكردي الشهير عرب شامو في العام ١٩٢٩. و تعد ريا تازه الجريدة الكوردية الرسمية الوحيدة التي اصدرتها الدولة في تاريخ الصحافة الكردية، فقد كانت لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأرميني ومجلس السوفيت الأعلى ومجلس الوزراء في جمهورية أرمينيا الاشتراكية. وكانت الجريدة الرابعة التابعة للدولة في أرمينيا الى جانب ثلاث جرائد أخرى تصدر باللغات الأرمينية والروسية والأذربيجانية

تحددت مهمات "ريادة تازة" في رسالة التحيّة التي وجهتها اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ الأرمنيّ إلى الجريدة والمنشورة في عددها الأول. وخلال الفترة (١٩٣٠ - ١٩٣٤) تولى رئاسة تحرير الجريدة بالتعاقب كاتبان أرمنيان يتقنان اللغة الكوردية هما "غراجيا كوجار" - وهو في الأصل أرمنيّ من تركيا - ثمّ "ارتيون مكرتجيان". وقد برزت السلطات الأرمنية هذا الأمر بعدم وجود صحفيين كرد محترفين ومؤهلين لهذا العمل في ذلك الوقت، ولكن منذ العام ١٩٣٤ أصبح الكاتب الكرديّ "جاردي غينجو" رئيساً للتحرير، ولم يكن لهذا التغيير أثر يذكر على نهج الجريدة وسياستها التي كانت ترسمها القسم الأيديولوجي في الحزب الشيوعيّ الأرمنيّ.

نهضة اجتماعية وثقافية:

لم يكن إصدار "ريادة تازة" بمعزل عن السياسة التي انتهجها الحزب الشيوعيّ السوفييتي بالنسبة إلى الأقليات القومية، فقد سبق إصدار الجريدة عدة خطوات في غاية الأهمية منها افتتاح عدد من المدارس الابتدائية ومراكز محو الأمية في البلدات والقرى التي تقطنها غالبية كوردية - وكانت الدراسة فيها باللغة الكوردية، بما فيها الكتب المدرسية التي وضعها المثقفون والكتاب الكورد السوفييت - وتأسس أول معهد كوردي لأعداد المعلمين، الذي تخرج فيه العديد من المعلمين الذين أصبحوا فيما بعد كتّاباً وشعراء مشهورين.

ويمكن القول إجمالاً أن المجتمع الكوردي السوفييتي شهد تطوراً اجتماعياً مشهوداً، تمثل في تحرير المرأة وأسهمها الفعال في العمل جنباً إلى جنب مع الرجل ومحاربة العادات والتقاليد البالية، كما شهد بموازاة ذلك نهضة ثقافية، تجلت على أوضح صورة في ظهور عدد كبير من المبدعين الكورد في شتى مجالات الآداب والفنون، وصدور عشرات الكتب الفكرية والثقافية باللغة الكوردية سنوياً. صحيح أن أولئك الكتاب والشعراء والفنانين لم يخفوا الخطوط الحمراء للواقعية الاشتراكية ولم يكن بوسعهم تجاوز السياسة المرسومة من قبل الحزب للجهة الأيديولوجية، و مع ذلك فإن تلك النتاجات كانت كوردية خالصة تتحدث عن حياة الكورد وتعكس ثقافتهم وتنمي لغتهم وتجمع تراثهم الشعبي في إطار فكري وفلسفي ماركسي.

وبظهور "ريا تازة" أصبح المجال واسعاً أمام المثقفين الكورد لنشر نتاجاتهم الأدبائية على صفحاتها أولاً بأول والتواصل مع القراء على نحو واسع ووثيق.

ضغوط تركية :

النهضة الأجماعية والثقافية الكوردية في مناطق القفقاس القريبة من كردستان أزعجت الدول التي تتقاسم كردستان، ليس فقط بسبب تأثير هذه النهضة المباركة على مواطنيها من الكورد - رغم وجود الستار الحديدي وانعزال الكورد السوفييت عن أبناء جلدتهم في الوطن الأم - بل لأن تلك الدول وخصوصاً تركيا الكمالية كانت تعتبر أي نجاح كوردي تهديداً لأمنها القومي. لذا حاولت منع هذا التأثير بشتى الوسائل.

وتشير الوثائق الدبلوماسية المنشورة بعد تفكك الأتحاد السوفييتي، أن تركيا هدت الأتحاد السوفييتي في أوائل العام ١٩٣٥ بأعادة النظر في العلاقات الدبلوماسية بين البلدين اذا لم تقم السلطات السوفيتية المعنية بمنع او في الأقل تحجيم الدعم المقدم الى الكورد السوفيت في تحديث المجتمع الكوردي في جمهوريات ما وراء القفقاس وتطوير اللغة والأدب الكرديين.

ويبدو أن تركيا الكمالية حققت بعض النجاح وتمكنت من منع الجريدة من القاء الأضواء على حياة الكورد في الخارج، وكما يقول تيمور خليل، وكان أحد أعضاء هيئة تحرير الجريدة حتى نهاية الثمانينات من القرن الماضي: ان الضغط التركي وصل الى درجة ان الدبلوماسيين الأتراك كان بوسعهم - ان أرادوا ذلك - الأطلاع على محتوى العدد الدوري من الجريدة قبل ارساله الى المطبعة و أبدأ ملاحظاتهم حوله أو منع أية مادة من النشر. ولكنني شخصياً لا أصدق حكاية الرقابة التركية على الجريدة، لأنها تعد تدخلاً سافراً في شؤون دولة عظمى مثل الأتحاد السوفييتي، ونحن نعرف جيداً حساسية ستالين من أي تدخل أجنبي. في شؤون بلاده مهما كان هامشياً. ولكنني أصدق أمراً آخر ذكره المحرر المذكور وهو منع الكردولوجيين العاملين في أقسام الكردولوجيا التابعة لأكاديمية العلوم السوفيتية في جمهوريات الأتحاد

السوفييتي من الأتصال بزملائهم الكورد والأجانب في الخارج بأي شكل من الأشكال. كما تم منع ادارة الجريدة من ارسال نسخها الى الدول الأخرى، ولم يقتصر المنع على الجريدة وحدها بل شمل الكتب الكوردية حيث منع الكتاب والشعراء الكورد السوفييت من إرسال نسخ من نتاجاتهم الى خارج البلاد، ولكن العالم والكاتب الكردي (البروفيسور فيما بعد) حاجي جندي خرق هذا المنع حين قام بأرسل نسخ من جريدة "ريا تازه" مع بعض الكتب الكردية الصادرة في الأتحاد السوفييتي الى جلاذت بدرخان رئيس تحرير اشهر مجلة كردية في ذلك الوقت وهي مجلة "هاوار". وقد نشرت المجلة في عددها الثامن الصادر في العام ١٩٣٢ عرضا لجريدة "ريا تازه" ولبعض الكتب الكوردية السوفيتية بأسم مستعار وهو "هركول عزيزان". ورغم ان مجلة "هاوار" لم تذكر اسم المرسل - وحسنا فعلت ذلك - الا أننا نعرف ان حاجي جندي هو الذي غامر بذلك. كما نعرف أيضاً ان حاجي جندي قد تعرض الى الأعتقال والمحكمة بتهمة " الكوردايتي " في منتصف الثلاثينات من القرن الماضي. وكانت احدى التهم الموجهة اليه هو تسريب جريدة "ريا تازه" والكتب الكوردية الى خارج البلاد.

ستالين يتدخل شخصياً :

في العام ١٩٣٨ وبأمر مباشر من ستالين، توقفت الجريدة عن الصدور مؤقتاً - كما قيل وقتئذ - من اجل تحويل الكتابة الكوردية فيها من الحروف اللاتينية الى الحروف الروسية. وقت برر المسؤولون الأرمن هذا التحويل بأنه من اجل تقريب الكرد من الثقافة الروسية وثقافات الشعوب السوفيتية الأخرى ولكن هذا التوقف المؤقت دام ١٨ عاما ولم يستأنف اصدار الجريدة الا بعد وفاة ستالين وتولى نيكييتا خروتشوف مقاليد الحكم، وهي الفترة التي تعرف بفترة "ذوبان الثلوج" في اشارة الى اسم رواية صدرت في عام ١٩٥٣ للكاتب الروسي الشهير ايليا اهرنبورغ (١٨٩٥ - ١٩٦٧)

تصور حياة المثقفين والتكنوقراط الكنيبية والمظالم التي تعرضوا لها في الفترة الستالينية.

في هذه الفترة تحديداً أخذ الكورد السوفيت يلتقطون أنفاسهم وعاد الى مواطنهم الأصلية مئات المنفيين الكورد من معسكرات الاعتقال والأشغال الشاقة في سيبيريا، وأخذت الحياة الطبيعية تعود الى الماطق الكوردية شيئاً فشيئاً.

عودة "ريا تازة" بجله روسية:

بعد مطالبات المثقفين الكورد، وافقت السلطات السوفيتية ذات العلاقة على أستئناف إصدار جريدة "ريا تازة". حيث صدر العدد الجديد منها في شباط ١٩٥٥ ولكن هذه المرة باللغة الكوردية المدونة بالحروف الروسية واصبح "ميروي أسد" رئيساً لتحريرها والذي ظل في هذا المنصب الى العام ١٩٨٩ أى لمدة ٣٤ عاما - رغم التقلبات السياسية في بلاد السوفييت - وهي مدة قياسية جديرة بالتسجيل.

صحيح ان مستوى الجريدة شهد تطوراً ملحوظاً وهذا أمر طبيعي، نظراً لتطور المجتمع الكوردي السوفيتي نفسه ولكن رئيس التحرير المخضرم كان كوردياً متمتماً الى أبعد الحدود وملكياً أكثر من الملك. ويقول زملائه في هيئة تحرير الجريدة أنه كان حذراً للغاية وبخشى من أية ملاحظة تبديها السلطة الأرمنية وكان أشد صرامة حتى من الرقابة السوفيتية نفسها التي كانت تعتبر الصحفيين جنوداً على "الجهة الأيديولوجية".

وكما يشبث الارشيف الداخلي للجريدة ان رئيس التحرير الحديدي فرض رقابة ثانية على المواد المنشورة يمكن أعتبارها رقابة ذاتية أشد صرامة من الرقابة الرسمية، و يدل على ذلك الارشيف الداخلي للجريدة الذي يضم مخطوطات كثير من النتاجات القيمة لشعراء وكتاب كورد مرموقين، حجبها رئيس التحرير عن النشر.

خلال فترة "البريسترويكا" أهتز كرسى "ميروي أسد" الذي لم يعد مقبولاً لدى المثقفين الكورد، وكان لا بد له ان يرحل غير مأسوف عليه ليحل محله في العام ١٩٨٩ وحتى منتصف العام ١٩٩١ الكاتب والأعلامي الكوردي

"تيتالى أفو" وكان هيئة تحريرها تضم نخبة ممتازة من الكتاب والأدباء الكورد بينهم العالم الجليل حاجى جندي، امينى عبدال، كاجاغى مراد. أما آخر رئيس تحرير للجريدة وأكثرتهم انفتاحا ونشاطا فهو "أماريكى سردار" الذى شغل رئاسة التحرير خلال الفترة (١٩٩١ - ٢٠٠٦). وهذا الكاتب والأعلامى اللامع معروف الى حد ما فى إقليم كوردستان بعد مشاركته فى مؤتمر "الكوردولوجيا" الذى عقد فى أربيل فى العام ٢٠٠٦.

أزدهار مؤقتة ومعاناة دائمة :

إذا كان رقم توزيع الجريدة فى الثلاثينات لا يتجاوز ألف نسخة فإنه قفز الى ستة آلاف نسخة فى أجواء الحرية النسبية خلال فترة الـريسترويكا. وأخذت الجريدة فى عهدها الجديد توزع فى كل من ارمينيا، واذربيجان، وجورجيا، وكازاخستان، وروسيا وبعض الدول الاوروبية وكندا والولايات المتحدة الاميركية، وكان للجريدة مراسلون فى اذربيجان وجورجيا وكازاخستان.

وبعد تفكك الأتحاد السوفييتى وحصول جمهوريات ما وراء القفقاس على الأستقلال فى نهاية العام ١٩٩١، تم قطع التمويل الحكومى عن الجريدة وفى الوقت نفسه أخذ القسم الأكبر من السكان الكورد (وهم فى غالبيتهم من القرويين) بالنزوح من جمهوريات ما وراء القفقاس الثلاث الى روسيا، بسبب السياسات الشوفينية للحكام الجدد، فى حين فضل المثقفون منهم الهجرة الى الدول الغربية. أى ان الجريدة واجهت معضلتين فى آن واحد أولهما قطع الدعم المالى الحكومى عنها وثانيهما فقدان قاعدتها الأساسية من القراء الكورد، رغم تحولها الى جريدة مستقلة، و أصبحت تصدر شهرياً وبشق الأنفس وتعتمد فى تمويلها على تبرعات المثقفين ورجال الأعمال الكورد. ومما زاد الطين بلة غياب الخدمات البريدية فى تلك الأيام العصيبة واندلاع نزاع (قره باغ)

بين أرمينيا وأذربيجان وهى المنطقة التى يشكل الكورد فيها قسما كبيرا من السكان، وأضطّر العاملون في الجريدة الى توزيع نسخها بأنفسهم مجاناً، ولكن هذا التوزيع أقتصر على مدينة يريفان، وكان من الصعب عليهم أيضاها الى المناطق الزراعية حيث يعيش الكورد الذين فضلوا البقاء رغم معاناتهم الشديدة.

دور الجريدة السياسي و الاجتماعي والثقافي:

لما كانت "ريا تازة" حتى تفكك الأتحاد السوفييتى، جريدة تنطق باسم الحزب والحكومة فان مساحة واسعة فيها كانت تشغلها "البروباجاندا" السوفيتية رغم أنها كانت تتحدث أيضاً عن حياة القرويين الكورد العاملين في المزارع الجماعية ومزارع الدولة والعمال الكورد في المصانع الحكومية.

وبعد تحول "ريا تازة" الى جريدة مستقلة اثر تفكك الأتحاد السوفييتى، بدأت في عهدها الجديد تكتب بحرية عن حياة و ثقافة المجتمع الكردى في ارمينيا والحركة التحررية الكردية.

لـ"ريا تازة" دور ملحوظ في ظهور العديد من المصطلحات الجديدة في مجالات السياسة، والاقتصاد، والفضاء، والطب، والشؤون العسكرية، الخ. وفي تطوير الأملاء الكردى من قبل اللغويين الكورد البارزين مثل "قناتى كوردييف" و"جيركينز باكايف" اللذان نشرا على صفحاتها دراسات قيمة عن الأملاء الكوردي.

كما ساهمت الجريدة بقسط وافر في تشجيع أصحاب المواهب الأدبية والفنية، ويمكن القول ان معظم الكتاب والشعراء والكتاب المسرحيين الكورد بدأوا أولى خطواتهم على صفحاتها. اضافة الى نشر ترجمات لروائع الأدب الروسى والعالمى باللغة الكردية ولأول مرة.

ولكن الدور التارىخى لـ"ريا تازة" لا يقتصر على معالجة الفنون الأدبية أو القولية الأخرى، بل تشمل أيضاً الأدب الشعبى الشفاهى، وفي هذا المجال تحديداً قدمت "ريا تازة" للثقافة الكوردية خدمات جليلة أكثر من أى مطبوع كوردي آخر في تارىخ الصحافة الكوردية، حيث

كانت تنشر بشكل دورى نماذج من الابداع الأدبى الشفاهى. وعلى صفحات الجريدة نشرت للمرة الاولى الأغانى الشعبية الكردية مع نوتاتها الموسيقية ونصوص قصائد الشعراء الكرد المغناة كما نشرت على نحو دورى مقالات الموسيقيين الكورد.

وتقديرا لدور "ريا تازة" التارىخى أنعمت الدولة السوفيتية على الجريدة فى العام ١٩٨٠ بوسام الدولة التقديرى لمناسبة مرور ٥٠ عاما على صدورها.

مع حلول عام ٢٠٠٠ تحولت الجريدة إلى الحروف اللاتينية، على الرغم من الموقف السلبي للسلطات الارمنية التى وضعت عراقيل امام هذا التحول، الذى كان يهدف الى توحيد الكتابة الكوردية، لكى لا ينعزل ما تبقى من كرد ارمينيا عن ما يجرى فى وطنهم كردستان وفى العالم. كما كان يهدف الى اتاحة الفرصة للقراء الكرد، سواء فى كوردستان او الشتات لقراءة الجريدة بالحروف اللاتينية المستخدمة على نطاق واسع.

أرشيف "ريا تازة" كنز ثرى للمؤرخين ولا يمكن لأى باحث ان يتجاهل المواد التى نشرتها الجريدة خلال عمرها الطويل. ونجزم - على سبيل اليقين الذى يؤكد التتبع الدقيق لمسار الجريدة - أنها فى الواقع موسوعة حياة الكورد السوفيت قبل انهيار الاتحاد السوفياتى.

وتبقى مسألة فى غاية الأهمية وهى أن السلطات الأرمنية وخاصة بعد استقلال أرمنيا وتولى القوميين الأرمن مقاليد الحكم، حاولت وتحاول شق صفوف الكورد فى أرمنيا وفى الجمهوريات الأخرى وذلك عن طريق الأيحاء للكورد الأيزيدية أنهم يشكلون قومية مستقلة غير القومية الكوردية، وما يحمدهم لـ"ريا تازة" أنها تصدت بكل قوة وجرأة لمثل هذه المحاولات اليائسة ونشرت على صفحاتها عشرات المقالات والدراسات والشواهد التارىخية والأجتماعية والثقافية التى تبرهن ان الأخوة الأيزيديين هم كورد أقحاح وان كانوا يؤمنون بدين عريق آخر وكانت فى الجريدة فى السنوات ما بعد اليرىسترويكا حقل ثابت تحت عنوان "نحن أمة واحدة".

عانت الجريدة في السنوات الأخيرة من عمرها - كما سبق القول - من ضائقة مالية خانقة، وتوقفت عمليا عن الصدور منذ عام ٢٠٠٦ وان كانت تصدر عدداً واحداً أو عددين في السنة الواحدة وهناك محاولات لإعادة إصدارها بانتظام وتنتظر يداً كريمة تمتد اليها لأنقاذها من التوقف النهائي. ونحن نناشد من هذا المنبر الكريم، وزارة الثقافة في الأقليم ان تلتفت الى مصير الصحيفة الأطول عمراً في تأريخ الصحافة الكوردية.

